
جولييت
فوق سطح القمر
محمد عبد الحليم عبد الله

هذه الليلة بالنسبة للملك شهريار لم تكن مثل كل الليالى . كان كل شيء فيها خافت السحر . بخور جزر الهند وحرير مدن الصين والقناديل الفارسية .. يعنى الروائح والملابس والنور .. كل هذا كان خافت السحر .

لم يكن الملك سعيدا بطبيعة الحال ، لأنه بدأ يكشف الخدعة المشهورة . بدأ يكتشف أن شهر زاد (تحكي) لتنقذ نفسها ، وانه على الرغم مما يتقلده من وقار بدأ يهتز من أعماقه ، بدأ يتداعى . فالروائح والملابس والنور فقدت لغتها .أصبحت شيئا أخرس ولو أنها حول أجمل وألين فتاة عرفها التاريخ . ذلك لأن شهر زاد ـ نفسها ـ مريضة .

وعلى الرغم من أن الملك بدأ يكتشف الخدعة فإنه لم يملك حيالها شيئا . فهو الليلة يعلم أن شهر زاد (تحكي) من أجل نفسها ... ولكن الملك لم يملك أن يحول بين حبها وبين قلبه !!.

وإذا كانت أولى لمسات الحب لا يمكن أن تعنى إلا السعادة فإنها أيضا يمكن أن تعنى كل معاني الخوف .. الخوف الذى عرفته القلوب من عصر الغابة حتى اليوم .

أحس الملك أنه أقوى من أن يملكه كائن آخر ... وتنهد ... إنه ينظر إلى الحب على أنه عطاء !!.. منحة !! ..

فهو حين يشعر بميل نحو أى فتاة فالعطاء هنا هو أن يقول لها: تعالى .

هذا هو الأمر فى نظره .. أما إذا أصبح الحب إنسانين فى إنسان فهذا هو ما يرفضه.هذا شىء يتنافى مع نظرته إلى نفسه من الداخل . فهو يرى من داخله عرشا وصولجانا والأشياء الأخرى التى تتبع هذا .

أما الآن فهناك كارثة على وشك الوقوع . فبخور جزر الهند وحرير الصين والقناديل الفارسية ـ لم تعد سوى قشرة لهذه الثمرة الإنسانية العظيمة شهر زاد حتى جعل يتصورها ـ وهى تحكى منهوكة الصوت ـ أنها فى أسمال إحدى بنات الطريق وعلى أسنانها اللؤلؤية بقايا خضروات أكلتها . ثم سأل نفسه : هل يقل وزنها فى نفسه إذا ما أخذت تحكى ؟!.

وكان الجواب : لا . أنها هى هى . فارتعش . اجتاحه الخوف . أحس أن لها صولجانا فى داخلها أيضا وأن صولجانها أعظم من صولجانه . لأنه غير محتاج إلى الحرير ولا القناديل ولا البخور .

وهنا عاوده الخوف مع شىء يكاد أن يكون غضبا . فهو الذى استسلم للخديعة ، لماذا تركها تحكى ؟! لماذا لم يسلمها للسياف بعد أول ليلة كما كانت عادته ؟ هل هناك أناس يستعصون على الموت (وتخيل أنها ماتت وأكمل السؤال) حتى ولو ماتوا ؟!

عندئذ هز الملك رأسه إيجابا فليس قتلها بعد ما فعلت معه قادرا على إقصائها عن الحياة . بل إن الأمر قد تجاوز حده الآن . تجاوزه جدا . ها هى ذى تأمره ـ بلا أمر ـ وتقول له : تعال . وانعكست الآية وأصبحت هى صاحبة الإشارة الأولى .

كانت شهر زاد توالى حديثها الحلو وهى غير قادرة على مـا تفعـل . لكنها غالبت مرضها فقد كانت ترى المرض علـى هـذه الفـترة مـن حياتهـا أخف ما فى الحياة . كما كانت ترى الموت بالنسبة لها ليس شيئا شـخصيا والعكس صحيح . فانتصارها على الملك حياة ليست شخصية ولكنها حيـاة كل اللاتى متن قبلها وكل اللاتى ستكتب لهن النجاة .

لذلك فقد كان الملك يحس بآلام مرضها أكثر مـن إحساسـها هـى . كان على وشك أن يتأوه عدة مرات نيابة عنها لولا أنه خجل.

وعلى كل حال فقد مضت الليلة . وأوى الملك إلى مخدعه المنفر لكنـه لم ينم . ظل ساهرا يفكر فى الصولجان الذى بداخله . إنه على وشك أن تمتـد إليه يدها . تلك الصغـيرة البيضـاء ذات الأصـابع الممشوقة . كأنمـا خلقـت لتحسن التسلل إلى خلجات النفوس المجهولة .

وشعر الملك وهو مؤرق كأنه يرفع تلك اليـد إلى شـفتيه علـى الرغـم من كل شىء . فاستسلم وهلة للخضوع ولم يلبث أن أفاق وعادت إليه طبيعته ونظرته إلى الحب على أنه عطاء ومنحـة . لكنـه عـاد يـوازن بـين الحالتين . أخذ شخصية رجل ثالث يحكم بين اثنين فما لبث أن اكتشف أن لحظة (الخضوع) التى لمسها هى أعمق لحظات الشـعور فـى حياتـه كإنسان .

***

على أنه استيقظ حزينا فى الصباح الباكر . فشعر أنـه اليـوم أشـد مـا يكون حاجة إلى أن يرى وجهها مع بشائر هذا الصباح الذى تسلل نوره البنفسجى من الستائر الملكية .

فغادر فراشه ومشى إليها . دخل فى صمت . شعر أنه داخل إلى محراب كان يصلى صلاتهم . ثم تقدم إلى فراشها . فرأى تلك التى تومض كل ليلة كأنها نجمة الزهرة ، رآها صغيرة منطفئة ليس حولها إلا الستائر . فلمس خدها فإذا بها محمومة .. و لم تستيقظ . و لم يمكث . وخرج .

****

وعندما دخل عليه أحد رجال القصر فى منتصف النهار أحس فجأة بأن شيئا قد زاد عليه . كما نحس نحن بثقل المعطف لحظة نرتديه فوق الملابس . أما هذا الذى زاد عليه فهو سطوة الصولجان وقد نسى شهر زاد . نسيها وإن كانت فى أعمق أعماقه .

وكان ذلك الداخل مهموما ضاحكا فى وقت واحد . ومن الممكن أن نتصور المبتسم المهموم .

فلما وصل الرجل إلى الملك انحنى بين يديه ثم سعى نحوه حتى إذا ما قرب من أذنه همس بثلاث كلمات ثم ابتعد . لكن ملامح الملك جمدت ثم تصلبت ثم اتخذت هيئة الحزانى لوهلة قصيرة ، ثم نطق الملك سائلا الرجل :

ـ هل هذا صحيح ؟

فأوما برأسه دلالة الإيجاب و لم يرد ، ثم ما لبث أن هتف قائلا للرجل :

ـــ انصرف .. واتركنى وحدى .

ولما تركه وحده أخذ يذرع الحجرة فى كل اتجاه ويقلب يديه ويضحك .

وبمرور ساعة من الزمن أصبح الأمر عاديا جدا وأصبح الخبر عاديا جدا . وفى آخر النهار دخل الرجل نفسه على الملك وهو فى حالة من الممكن أن تكون حسنة . لكن وجه الرجل كان يحمل الخوف . بل الهلع والذعر . وكان يتقدم من الملك وانحنى وتعثر حتى قال له الملك بأعلى صوت :

ـ تعال أيها الوغد وقل ما عندك !

فتقدم الرجل وهمس فى أذن الملك بثلاث كلمات ثم ابتعد . لكن ملامح الملك جمدت ثم تصلبت ثم أخذت هيئة الحزانى لوهلة قصيرة ثم نطق الملك سائلا الرجل :

ـ هل هذا صحيح ؟!

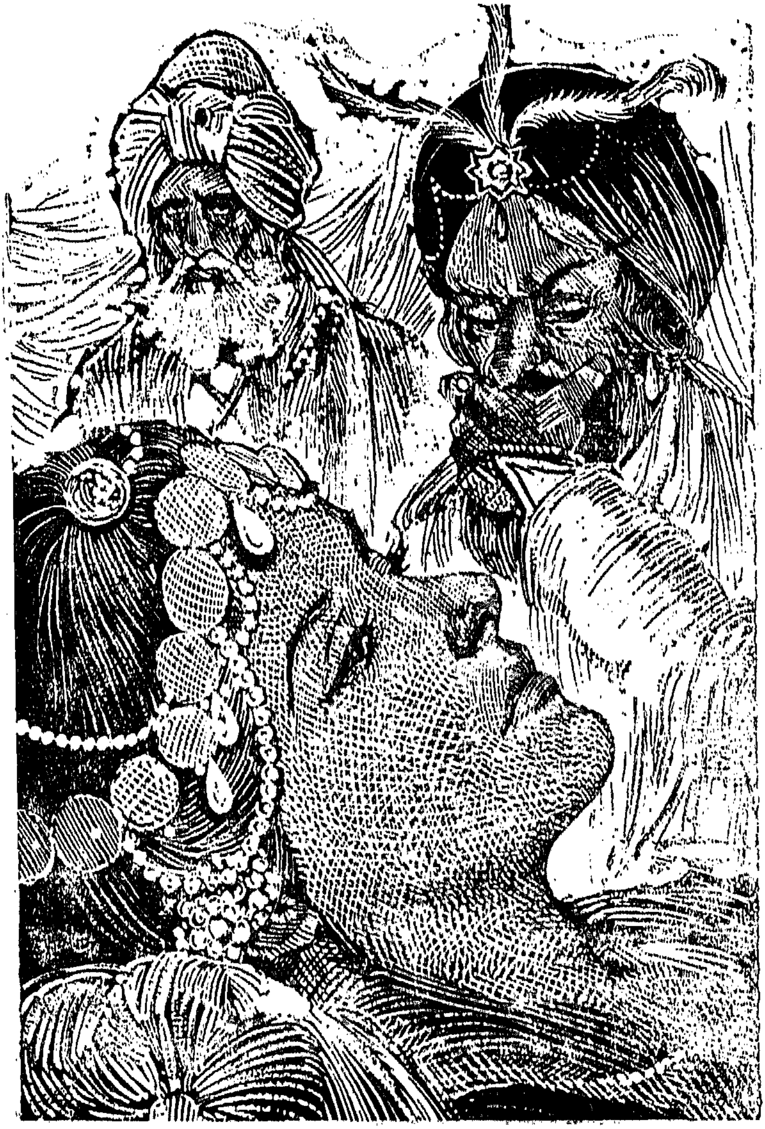
فأوما برأسه أى نعم و لم يزد . ثم ما لبث أن هتف قائلا للرجل :

ـ انصرف واتركنى وحدى .

***

كان يذهب فى الحجرة ويجئ ويتحسس عنقه وهو واجم . ثم أخذ يتحدث بصوت ربما كان مسموعا وربما كان غير مسموع : « فى يوم واحد يجرى كل هذا ؟! فى أول النهار مات مهرج القصر وفى آخر النهار مات السياف . أليس هذا تحديا من القدر (وتأوه) ثم .. شهر زاد مريضة . ما هذا ؟! ضحكى وعقابى وحبى ؟! (وتأوهت) لكن ليس شىء من هذا قادرا على أن يغلبنى فأنا شهريار الذى قهر أقوى قوة فى العالم « الحب !! » .

ثم نادى الملك .



إن المريضة ليست بخير .. وليست بشر ....

أمر بحشد كل أطباء المملكة لإنقاذ حياة شهر زاد التى كان من المفروض أن يتسلمها السياف من زمن . ثم أمر بإحضار أشهر رجلين فى المملكة يصلح أحدهما مهرجا ويصلح الثانى سيافا .

وانتهت الأوامر .

وفى الصباح . كان الأطباء لا يزالون فى مخدع شهر زاد والملك بانتظار الرجلين .

دخلا عليه . وكان مهموما . وكان معهما الرجل المعهود .

رآهما الملك وعرف ملامح المهرج وملامح السياف وتركهما برهة ، لكنها فى الواقع كانت طويلة جدا ، ألقى الرعب فى قلبيهما. لكن الملك كان مشغول البال بما جرى فى مخدع شهر زاد .

وأخيرا صدر أمره .

قال للأول .

ـ أنت مهرج القصر .

وقال للثانى :

ـ وانت السياف .

وانحنى الرجلان بالشكر والطاعة وخرجا . ولم تمض فترة طويلة حتى دخل عليه الرجل المعهود . كان الارتباك والقلق باديين عليه . وأخذ يتقدم نحو أذنه يهمس له .

فصرخ الملك :

ـ لا أريد همسا . الهمس كله شر . أصرخ بما عندك كما أصرخ أنا الآن .

فصرخ الرجل قائلا :

- لقد حدث يا مولاى خطأ بسيط لكنه .. آ . صواب أيضا ،فقد أمرتم بأن يكون كل من الرجلين مكانا للآخر .. لعل .. آ ..

فقال الملك :

- أهذا كل ما فى الموضوع ؟ لا تحزن خذ أمرا جديدا : « يثبت كل من الرجلين فى وظيفته » .

ثم استطرد :

- ليس هذا هو المهم . المهم الآن أخبار شهر زاد .

عندئذ دخل عليه كبير الأطباء عمرا . رجل منحنى الظهر كأنه حمل جيلين على كاهله وقال للملك :

- إن المريضة ليست بخير . وليست بشر . كل شىء جائز . فابتهل إلى اللّه .

وانصرف الطبيب وأطرق الملك دامع العينين . وكان يقول فى نفسه : « من الممكن أن يصلح الخطأ الذى وقع بشأن المهرج والسياف ، لكن هل من الممكن أن أصلح أخطاء القلوب ؟! » .

القلنســوة الصّغـيرة

قلنسوة من الصوف نسجتها يد الأم فى الأشهر الأخيرة السعيدة قبل أن تضع مولودها الأول . والأم من طبعها أن تضع قلبها فى كل شىء تصنعه لابنها حتى قبل أن تراه العين ... حتى ولو كان غائبا .

وكان أب الشاب يرقب زوجته وهى تقوم بهذا العمل وهو .. إما متأمل أو باسم أو متحدث معها أو مستغرق فى الضحك . كان ينظر إلى إبرها وهى تعمل باعتزازا وكأنها تصنع خيوط الحياة ويقول لها :

ـ الآن رأيت كيف كانت أمى تخيط ملابسى قبل أن أرى نور الدنيا . ولم يبق لى إلا أن أرى يوم تضعين هذه القنسوة على رأس المولود لأرى بريق عينى أمى يوم البستنى أول قطعة من الثياب .

بعد ذلك أطرق الشاب يفكر : « من أجل خاطر هؤلاء الأبناء نصنع أشياء لا تحصى منها الصعب ومنها السهل . والصعب من أجلهم يسهل . والسهل من أجلهم يمر مثل لمس النسيم » .

وتأوه لأنه تذكر هؤلاء الذين يقومون بأصعب الصعب من أجل الأبناء ... أو ... من أجل الحاضرين منهم والذين لم يولدوا بعد مثل ابنه وابنته . هذه التى تصنع لها أمها قلنسوة من الصوف .

إنهم رجال لا ينامون ولا يجف العرق عن أجسامهم . أمامه أعداؤه وخلف ظهره أحبابه . والزمن عندهم لا قيمة له وكذلك العمر إلا بمقدار ما يحققونه من انتصار .

ثم .. رفع الشاب رأسه من إطراقه وقال لزوجته . تصنعين قلنسوة لطفل ؟ .. هذا جميل .. هذا الطفل الذى يحتاج رأسه لقلنسوة محتاج لشيء أهم . محتاج إلى مكان تحت الشمس . إلى رقعة كريمة فى أرض وطن عزيز . هذه الرقعة تحوطها يد الأب ويد الأم . الاثنان معا .. رئتان تخفقان فى الصدر .

آه .. كل ما أرجوه منك أن تسرعي جدا فى إتمام هذه القلنسوة.

***

باتت الزوجة الشابة تفكر فى كل ما قاله زوجها الشاب . نبرة جديدة تجرى فى كلماته .. آه إنها ليست فى كلماته وحده . بل هى فى كلمات كل الناس . ذلك هو أخوها الشاب الذى كتب لها رسالة بيده اليسرى لأن يده اليمنى كان فيها جرح خفيف . وقال لها : إننا نعمل بكل ما فينا وما نملك حتى ولو كان شعر الرأس . وقال لها : هل كنت تتصورين يا أختى أننى أقدر أن أكتب بيدى اليسرى مثل هذا الخط ؟! أنت ترين الآن أن كل من يحاول يحظى بالنجاح . جرحت أصبعى فى عملية صامتة من عمليات العبور إلى ضفتنا الشرقية : وإن جاز أن اسمى نفسى بطلا - ولا تؤاخذينى — فماذا يحدث إن جرحت أصبع بطل ؟ كنت ليلتها أتذكر وأنا صغير كيف كنت أخاف من الليل لكن ليلة العبور عرفت وأنا كبير كيف خاف الليل منا .. آه أيتها الشقيقة الغالية . كل شيء يحاول يكسب بالمحاولة حتى ما نظنه ثقيلا .

****

وباتت الشابة على هذه الذكريات . نعم باتت . وأصبح الصباح وخرج زوجها الشاب إلى عمله كالمعتاد . لا تدرى لماذا قضت يومها تسمع بعض الأغانى من الراديو فى المطبخ وتدندن مع بعضها . ثم تذكر فجأة أن الطفل الذى تحمله يطلب منها شيئا . يطلب منها مكانا تحت الشمس لا قلنسوة صغيرة من الصوف فقط . وعندئذ عادت إليها ذكريات ما قاله زوجها بالأمس . وبينما هى فى هذه الحال دق جرس الباب فى ميعاد مبكر فإذا بزوجها عائد من عمله وعلى وجهه علامات الإهتمام .. عندئذ خمنت الزوجة كل شيء وما لبث الزوج أن قال لها :

ـ أنا ذاهب إلى هناك ..

فردت فى يقين :

ـ أنا أعلم ذلك . وهذا المنطق تقوله لى أشياء كثيرة . منها حقنا المقدس. ومنها ضريبة الشباب . ومنها أن نصنع للمولود مكانا تحت الشمس .

فقال :

ـ إنى أطلب منك هدية أصحبها معى فى سفرى .

قالت :

ـ اطلب .

فقال :

ـ آخذ معى تلك القلنسوة الصغيرة التى صنعتها للمولود . المولود الذى لم تره عيوننا .

فردت مداعبة :

ـ خذها .. هل تصلح أن تكون خوذة من الفولاذ ؟!

***

وبعد أسبوعين أو أكثر تلقت الزوجة خطابا من زوجها الشاب .

كان يبدو عليه فى الكتابة أنه مستعجل لكن بدا عليه أيضا أنه يريد أن يقول لها شيئا . أن يقول أنه راض عن نفسه . و لم يزد فى كلامه كثيرا .

وكان فى الحقيقة راضيا عن نفسه . وحقيقة كذلك أنه شعر بأن فى الأفق الشرقى أمامه عليه أشياء يجب أن تزول . الأفق الشرقى حيث يرى الشمس وهى تشرق فيحس أنه مطالب بأن يجعل لابنه مكانا تحت هذه الشمس على أرض وطنه . حتى ولو كان هذا الابن لم يولد بعد . ولذلك كان يحس أن كل جسم غريب أمامه إن هو إلا غصة فى حلقه . شعر بالظمأ ولو أن الماء قريب منه . فعرف أن الإنسان قد يظمأ لشىء غير الماء .

وكان فى الليل حين يسود الجبهة هدوء أبكم ، إن نطق صرخ ، وإن استمر مزق العصب — فى الليل فى هذه الفترات كان يخيل إليه أنه يسمع بكاء مولود جديد لا يعرف من لغة الناس إلا البكاء أو الصمت أو الابتسام . ومن خلال هذا الصوت كان يستمد كل قوة عضلية أو نفسية ويشعر أن الحياة الإنسانية ليست إلا حياة شخص تصب فى حياة شخص آخر ، وليست إلا خطوة إنسان تتصل بخطوة إنسان ....

وفى إحدى الليالى كان هو بين العابرين إلى الضفة الشرقية . وكان يحمل معه أشياء ثقيلة . أسلحة ناطقة وأسلحة صامتة ، وذخيرة وماء . وكان يزحف أحيانا ويمشى منحنيا أحيانا . كان يحس تماما أنه يفتش عن شىء يملكه . عن مهد لطفل . عن حفرة ليزرع فيها شجرة . عن

مكان يصلح لبناء بيت . عن مرتفع يدفع فيه علمنا ذا الألوان الثلاثة . عن أشياء كثيرة كلها غال .

وكان العرق يتصبب منه . كان الجو شديد الحرارة والليل حالك الإظلام . والنجوم تطل على الأبطال . وكلما تصبب عرقه أخرج ما يمسحه به . أخرج القلنسوة الصغيرة التى صنعتها زوجته لمولوده المنتظر . ومسح بها عرقا كثيرا . وكانت كل لمسة منها لوجهه تهبه روحا عظيما . كان ابنه فى يده . وكأنه عبر ليخلى له الطريق ويرد له حقه المقدس . وفى الظلام .. كان .. كأنه يرى ابتسامة الطفولة العذبة تترقرق على وجهه الحلو .



كان يخيل إليه أنه يسمع بكاء مولود جديد .

البـرج المائـل

ها هو ذا يبدو فى وقفته جد مبتئس ومحزون . إحدى خصلات شعره الناعم الفاحم تتدلى على جبينه الذى تبرق على شحوبه حبات كثيرة من العرق . أما خداه فكأن عليهما أثر اللطمات وإن لم يحدث شىء من هذا .

صدره يعلو ويهبط ولا يرى فى الحجرة التى يقف فيها سوى شىء واحد هو .. حذاؤه . عيناه مركزتان على حذائه لا تستطيعان فكاكا . ويده تحاول أن تبحث عن المنديل ليجفف عرقه لكنه ـ بعد أن يحركها ـ لا يلبث إلا أن يعيدها إلى مكانها . فتصير مدلاة كغصن ذابل .

ليس وحده فى الحجرة . يقف الآن أمام مكتب يجلس عليه رجل أشيب، أسنانه منضودة وفى مثل صفاء اللؤلؤ مما يؤكد أنها أسنان صناعية.

وذلك الجالس على المكتب لا يتكلم . لأنه بانتظار أن يقول الشاب شيئا .. وهو إذ ينتظر الكلام من الشاب يعلم أنه يطلب عبثا .. شيئا لا فائدة فيه . لكنه مكلف من ضميره وربما من القانون أن يجعله ينطق .

الشاب يبدو وكأنه فقد النطق . وطاقته العصبية نفدت حتى آخرها كأنه منزوف . وبعد فترة من الوقت لاحظ الرجل الجالس على المكتب والقلم فى يده ـ لاحظ أن أنفاس الشاب بدأت تنتظم بشكل غريب على هيئة ما يحدث لطفل أنهكه البكاء وسكت فبدأ النعاس يراوده .

عندئذ أمره الرجل بالجلوس . وكان الكرسى القريب من المكتب من نوع (الفوتى) منخفض الوسادة . فلما جلس عليه الشاب ــ وكان

قصير القامة ـ أحس أنه نصف راقد . واستسلم لشىء ليس نوما ولا حلما ولا ذكريات . استسلم لإحساس حاد بما عاناه أكد له أن كثيرا من الأحداث يمر بمقياس الزمن فقط لكن هو بمقياس الحقيقة موجود فى ظلمات الحلزون وإن كان جسم الحلزون يبرق على الرمال تحت أشعة الشمس . هكذا نحن ..

***

هذه الأشهر الأخيرة التى مرت به قبل هذا الموقف كانت غريبة. هو يذكرها الآن تماما وهو مسبل العينين كأنما يراها من خلف أجفانه .

يذكر كيف كان يعود فى وقت متأخر من الليل ويدير المفتاح فى باب الشقة .. أبوه وأمه نائمان تماما ، والعشاء مجهز على منضدة فى حجرة نومه . تقع إلى جوار مكتبه الجميل الذى نضدت عليه الكتب .. كتبه الجامعية . ذات الأغلفة التى منحها لها وكلها من اللون الأخضر فى أناقة حية وجمال يحبب فى العلم .

وبعد العشاء يدخن سيجارة وهو مستلق فى الفراش بإهمال . زجاج النافذة مقفل والستارة تتراقص عليه ببطء ، ربما من رياح الشتاء التى تنفذ من أى منفذ . وحلقات الدخان ترسم فى الحجرة شخوصا خيالية بعضها لفتيات وبعضها لشبان يعرفهم ويعرفهن . هذا صوت رنين التليفون يقطع عليه أحلامه الحادة . والرجل الجالس على المكتب يرد بصوت شديد الهدوء . عباراته مختصرة .. جنون .. ربما خيل إليه أن هذا الشاب الذى كان على وشك الإغماء قد استرخت أعصابه فتركه يستريح . ما أسهل وما أصعب أن نتخيل أنفسنا أوأبناءنا فى موقف

عصيب وقع فيه غيرنا . لكن الذى يساعده خياله يعرف القيمة الحقة التى يؤديها الخيال لإنقاذ غريق .. ساعة تمر بالنهر فتخلع ثيابك فجأة وتثب فى الماء فى برد الشتاء لتنتشل رجلا لا تعرفه بل وربما كان عاجزا عن الاستغاثة . فما أسهل أو أصعب أن نتخيل أنفسنا مكان غيرنا . لكن هذا إذا حدث تم التعاطف الإنسانى أو .. صلة القربى الصامته المجهولة بين إنسان وإنسان .

من أجل هذا كان الرجل الجالس على المكتب يخافت بصوته . كأنه يخاف أن يزعج الشاب . مع أن الشاب كان فى جلبه لاتقل عن جلبة (المولد) فهو الآن يرى الأشباح التى رسمها دخان السيجارة امراة عريانة ترقص وتصرخ . أسنانها غريبة . أحس ـ إذ تصور أنه قبلها ـ يميل إلى القيء . سنة ذهبية وسنة بلاتينية والثالثة أكل السوس نصفها .

وبعد قليل أحس الشاب أن الهواء تدفق من النافذة فاستفاق قليلا . وحملق فى حذائه . خيل إليه أنه ملفق . وكاد يخجل .. إذ تصور أن فردة منه سوداء وأن الأخرى بنية . وكان يتأكد لعجلته وقت الخروج إلى الامتحان لبس فردة وفردة . ثم شعر بميل شديد إلى أن يحملق فى الرجل الجالس على المكتب . وأسبل أجفانه فبدت له فى بقية الأحداث حادة جدا .

***

من خلال النافذة كان يرى زميله ماهر . يراه ساهرا والزجاج مفتوح على الرغم من شدة البرد . نعم . حركته الدائبة فى الحجرة

وحركة يديه تدل على أنه يعمل ويتفهم والليل متقدم الخطوات ساكن .. ميت .. لكن العمل الحى يجعل الليل أخصب ألف مرة من نهار بطالة .

ومن بين حلقات الدخان وجسم المرأة المهولة يدب فى جسمه خدر خبيث . ليس خدر جهد ولا مرض ولا عقار بل هو خدر الاستسلام لفكرة إسبرطية قديمة . أن يعاقب اللص لأنه ضبط لا لأنه سرق .. وعندئذ لاحت لعينيه ورقة الامتحان .

وقهقه وهو مغمض العينين فانتبه إليه الرجل الجالس على المكتب وناداه لكنه إذ رفع إليه أجفانه رأى عينيه المحمرتين ورأى ثقل أجفانه فآثر أن يتركه قليلا وعاد فانشغل هو بأشياء أمامه .

وفى هذه اللحظة دق التليفون ورد الجالس على المكتب .كان فى هذه المرة بالنسبة لعالم الشاب وأحاسيسه ـ كان جهورى الصوت . جاد جدا . وفى نبرته أمارة رجل الشرطة .

وسرعان ما عمل الخيال الذى سقط الشاب ـ فى هذه اللحظات ـ فريسة له . إذ انتقل به سريعا إلى مركز شرطة فى الريف . أبوه ضابط به . هناك .. حيث يتمتع كل ذى سلطة بجاه واحترام مضاعف ، ليس مثل المدينة .. القاهرة حيث تكثر النفائس والشخصيات بل وحتى أسواق الملابس القديمة والمتاحف .

بعد أن نجح فى امتحان العام الماضى ـ بطريقته ـ وذهب ليقضى إجازة الصيف فى الريف وسار ذات أصيل حتى دخل مركز الشرطة .. وعند الباب ومن بعد سمع صوت أبيه عاليا حادا . إنه يسمعه الآن وكأن

الزمن توقف . هذا أبوه يجأر بأعلى صوته . مفخما حرف الطاء بطريقة شخصية .

ودخل على أبيه ..

كان جالسا وراء الحاجز الخشبى المعروف على مكتبه . وأمامه شاب فى الثلاثين تبدو على وجهه لطمات الزمن . ملابسه ممزقة وقلنسوته مخروقة .

وعندما دخل الشاب الطالب على والده كانت علامات المراوغة ناطقة على وجه المتهم . كان الضابط يجأر قائلا له :

ـ اللف والدوران ليس فى صالحك . اعترف بالحقيقة وسأعمل على نجاتك .

وكالعادة المتبعة لم يصدق أحد الطرفين الآخر . فظل الشاب يراوغ مما دعا الضابط إلى أن يجبهه بالحقيقة قائلا :

ـ حقيقة أن حبل العجل لم يكن فى يدك لكنه كان يسير وأنت خلفه وبعصاك الطويلة كنت توجهه. فلما ضبطت أنكرت علاقتك بالموضوع .

فقال الشاب فى تذلل باك وتغاب يغيظ :

ـ والله يا سعادة البيه .. وحياة ابنك .. وعينى اللى حيلتى من الدنيا .. إن ما بينى وبين صاحب العجل أى معرفة ولا عداوة . فلماذا أسرقة ؟! .

وعندئذ استشاط الضابط غيظا لكنه ضحك ضحكا حقيقيا . فالمتهم كان بعين واحدة . والمسروق لم يكن ملكا لشخص وإنما هو من مزرعة حكومية . ثم استطرد الضابط سائلا :

ـ كم كذبة فى هذه الكلمات التى قلتها ؟!

فعاد الشاب بعد أن رمى بطاقيته على الأرض وهو يبكى - عاد يؤكد صدق ما قال ويحلف بعينه .

***

دخل رجل يرتدى معطفا أبيض متوسط السن . متجهم الوجه . تعبر قسماته عن ضيقه بالمهنة . ثم انحنى بالتحية للرجل الجالس على المكتب والقلم فى يده ، ثم عاد هذا الداخل فانحنى على الشاب الراقد تقريبا فى كرسى (الفوتى) وما لبث بعد أن دلك كفيه وفك أزرار قميصه — ما لبث أن فاحت من حقيبته المربعة رائحة نوشادر . وانصرف الرجل . واستنشق الشاب الهواء عميقا . وتذكر بسرعة . شيئا أخيرا كان يعاوده . كان يثقل ذهنه حتى كأنه زجاجة مليئة بالزئبق ولا يدرى من أين عزف هذا . ولا يذكر أين قرأه لكن هذه الحادثة التى خالطته فى هذه اللحظات التى توقف فيها الزمن كانت أروح ما دار فى رأسه . بصرف النظر عن مغزاها. وبصرف النظر عن نظرية الشاب نفسه إليها فى التطبيق .

كان قبل أن يفيق بثوان يسمع أحدا من الناس يحكى له ما يأتى : وهو يردد وراءه ما يقول كأنه مكلف بحفظه عن ظهر قلب .

***

على إحدى قمم جبل الأولمب ذات السحر والغموض والأساطير التقت ثلاث إلهات . كن قد خرجن للهو واللعب وممارسة أشهى ما يشتهيه البشر . ألا وهو « الثناء » .

جلسن قلقات يتمايلن . كل منهن ترى روعة جمال وجهها فى مرآة وجـه الأخريـات . وسـكرن بالأنوثـة . مـع أن العنـب لا يسـكر بالنبيذ . ثم أخذن يتراقصن ويتضاحكن . وكلما انساب فيض من أنوثـة الإلهات ازداد حنينهن إلى لقاء من يعبر لهن عن أسرار الجمال وهى علـى إحدى قمم الأولمب . وبعث القدر البهن بشاب كتب عليه الشقاء دون أن يشـعر . كتـب عليـه أن يشـقى ويشـقى غـيره . شـاب اسمه « بـاريس » رأتـه الإلهـات الثلاث فضحكـن لـه . واستدرجنه إلى مجلسهن . ثم عاد نبيذ الأنوثـة تعبـق رائحتـه الجبـال . فاسـترخى . عندئـذ سألنه قائلات :

ـ أينا أجمل ؟

تحير الشاب وسكت .

عندئذ عرضـت عليـه إحداهـن . (سـلطة الحكـم) وعرضـت عليـه الأخـرى (منبـع الحكمـة) وعرضـت عليـه الثالثـة (الحـب) فتجعـل « هيلانة » أجمل فتاة فى اليونان تحت حكم قلبه . فقبل وتمـت الصفقـة .. تمـت الرشـوة .. ثـم الغـش .. الغـش ... الغـش .. فشـهد مـع « أفروديت » إلهة الحب .. لكى تعطيه « هيلين » .

****

كان الشاب يتمتم بهذا قبل أن يفيق مباشرة كأنـه يـردد وراءه أحـد ليفحصه . وكان الرجل الجالس على المكتب ينصـت إليـه فـى ارتيـاع . ومـا لبـث أن أكمـل بينـه وبـين نفسـه : « ولمـا تمـت هـذه المأسـاة ..



و[illegible] يردد وراءه ما يقول ، كأنه مكلف بحفظه عن ظهر قلب

مأساة الغش تبعتها مأساة تاريخية أضخم . فلو أن الشاب « باريس » لم يأخذ « هيلين » الحسناء ثمنا لغشه . لما قامت حرب طروادة .

ولما أصبح كل نسائها أرامل إذ مات كل الرجال بسبب الغش » .

ثم هتف الرجل بالشاب قائلا له :

ـ انهض .

فوقف ينظر إلى حذائه . لم يحول بصره عنه . وبدا كأنه شاب غريب غير هذا الذى كان يحلم كنصف محموم . وبدا للرجل أن ضمير الشاب أصبح ملصقا بحذائه ... فسأل الرجل :

ـ هل تعرف برج « بيزا » ؟

هز الشاب رأسه ورد بصوت واهن :

ـ نعم .. المائل . إحدى عجائب الدنيا السبع .

ـ لماذا بنوه مائلا ؟!

ـ لا أدرى .

سكت الرجل قليلا ثم قال :

ـ لأن المهندس رأى ميله أعجوبة .. بين الأشياء أشياء إن (اعتدلت) سقطت .. بقاؤها فى (اعوجاجها) وحياتها فى (ميلها) حكمة ..

ـ ....

ـ وكذلك أنت . لقد ضبطوك مخبئا ورقة للغش فى جوربك أثناء الإجابة .. هذا سخيف .

ـ ربما كان من الصالح لك وللناس أن نغفر لك زلـة . لكـن .. يبـدو أنك قادر على التفرقة بين شيئين مهمين فمـن الممكـن أن أخطـىء وأنـا متمرد عـلى الخطـأ طـوال خطئـى وإن امتـد الزمـن . لكـن .. أن تجعـل للخطأ فلسفة فخطـؤك إذن لا يحتمـل لدقيقـة واحـده . فالشـاب الـذى شهد مع آلهة الحب . كـان يـرى الحـب أسمـى مـن الحكمـة . ولم يكـن قصده المشاركة فى الغش .

أطرق الشاب لا يرد . وكانت شفتاه تهمهمان . وكأنه يردد :

ـ إلهات اليونان .. عرفن .. الـ .. وبرج بيزا بقاؤه فى (ميله) .

وفى هذه اللحظة كتب الرجل على ورقة الطالب كلمة قاسية حرمته من حق الشريف . لكـن الأغـرب مـن هـذا . أن الطـالب رأى الأسـتاذ الجالس على المكتب يفرغ قلمه من الحبر بعد الذى كتبه ، كأنه شعر أن المداد قد تلوث .

أذيَـــــال العَـروس

(جولييت فوق سطح القمر)

يوم تحققت الأمنية العزيزة للست « أم عزت » لم يكن يقلق بالها شيء إلا ـ مخزن اللبن ـ يوم خطرت العروس الريفية بثوبها الطويل الأحمر .. زوجة ابنها الوحيد..وبدا بعض الحمام يخفق بأجنحته حول « نوار » المناديل على رأسها . وفى هذه اللحظة كانت « أم عزت » تزغرد وتغنى أمام الفرن .. والوقت باكر .. واليوم شتوى .. كانت تصنع لهما ـ رقاقا ـ للفطور فهما لا يزالان فى الأيام الأولى من الحياة الجديدة .

وكانت « أم عزت » تغنى فى هدوء وتزغرد فى هدوء أشد .. كأن هذه الأشياء كلها لا تزيد على نجوى. وكانت بين حين وحين تمسك بطرف ـ طرحتها ـ لتمسح شيئا من الدموع يجرى على خديها بلا إرادة .. كانت تحس برودة الدمع مع أن الدمع ساخن .. لكن توهج نار الفرن الذى أدفأ وجهها جدا جعلها تحس وكأن دموعها باردة ..

وخطرت العروس فى وسط الدار وأخذت شيئا ما ودخلت به إلى حجرتها . وتساقط الحمام حول العروس .. وحاولت الأم التى القت بالتحية لعروسة ابنها الوحيد أن ترى بفضول ماذا أخذت لكنها لم تفلح .. لأن وهج الدائرة الحمراء فى سقف الفرن وحرقة الدخان جعلت عينيها تدمعان .

وعادت الأم تهمهم بالغناء وتضع رقاق الفطور فى وعاء صغير من البوص ـ وأخذ الحمام الذى كان يتهاوى حول المرأة الجديدة يهدل كأنه يتساءل ..

وكانت الأم فى ذكرى هديل آخر ، ذكرى هديل ابنها يوم شب عن الطوق وكان يعانقها ويناغيها .. لكنها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة .. فقد وجدتها سخيفة .. ورفعت صوتها بالغناء كيما تؤكد لنفسها النسيان : « كل امرأة تأخذ رجلا من امرأة » وصرخت بالغناء عندما قالت فى نفسها من جديد : « أخذ الابن أسهل وأخذ الزوج أمر .. الحمد لله » .

وشعرت « أم عزت » بنفحة من الراحة .. وأخذت تنسق الرقاق فى الطبق وأحاطته بكثير من حلوى الأفراح .. ودفعت بذلك كله إلى زوجة ابنها من خلال فتحة باب الحجرة الموارب .

****

وعندما رجعت إلى ساحة الدار كان الفرن قد هجعت ناره .. والحمام قد كف عن الهديل .. والدجاج يقرقر فى طلب وجبة الصباح . والبقرة فى الحظيرة تنادى بصوت يشبه الحنين تطلب يد امرأة تحلبها .

وعندئذ أحست الأم أن ميلها للغناء قد خف .. بل على العكس شعرت أن هناك ناسا آخرين .. وكائنات أخرى تطلب ما هو حق لها وما هو مفيد .. أكثر من تلك الحجرة التى لا يفتح بابها إلا بعد الظهر كل يوم ومنذ خمسة أيام ..

فهناك فى الحقل .. وزوجها يعمل وحده .. أحست من أجلة بألم لا يخلو طبعا مما تصنعه النفوس من خدائع ، وأحست أن الدجاج يتيم .. وأن البقرة لا عائل لها .. وأن اللبن فى ضرعها تجبن مع أن ميعاد حلبها لم يتأخر سوى ساعة .

وعندئذ .. نصبت المرأة عودها حتى برز صدرها إلى الأمام . وغلفتها أهمية غير عادية مثل فارس يلبس عدة الحرب .. ومن خلال هذه الأهمية داعب قلبها طيف من الحزن .. وكأنها تقول فى نفسها : « كل شىء لولا يداها ما بنى .. آباء يعصرون العنب ويعرقون ، وأبناء يسكرون بنبيذه ويرقصون » .

وشعرت باشمئزاز شديد نحو كل لذة . حتى الديك الهندى الذى كان يمشى فى الدار مرحا ركلته برجلها وهى متجهة نحو الحظيرة .. وبدا لها عرفه الأحمر بقعة من الدم سوف تسيل على وجهه فقد كانت مخايل الذيول الحمراء التى كانت تجرها العروسة فى ساحة الدار منذ قليل لا تزال ماثلة فى مخيلتها .

زوجها فى الحقل يشد حول وسطه حزاما عريضا من الصوف الآن وهى .. تشد الآن حول وسطها طرحة قديمة . وتجرى فى ساحة الدار فتطعم وتسقى وتنظر إلى كل طائر مختال بشىء من الضيق .

وأخيرا اتجهت نحو البقرة لتحلبها ..

وكانت البقرة تهمهم وهى تأكل وقد أسلمت لها ضرعها .. وأخذت أصابع الأم تعمل لينساب الحليب .. وليرتفع أمام عينيها فى الوعاء مع موسيقى الحلب المعروفة : « شيش .. شيش ... شيش .. » .

واستسلام الأبقار للحلب له سحر لا يعرفه إلا « الحالبات » . شعرت معه الأم بالسيطرة والنشوة بمعنى يشبه ملكية الحب لا الحلب ، وعندئذ غمغمت بضحكة وعاودتها نفس الفكرة وكأنها تقول : « آباء يعصرون العنب ويعرقون ، وأبناء يسكرون بنبيذه ويرقصون » .

وكان باب حجرة العروسين في مواجهة باب الحظيرة ، وكان في استطاعة الأم أن تلقى نظرها فتراه . وكانت يداها تعملان فى الحلب وعيناها تنظران إلى الباب .

كان لا يزال مقفلا . كل شيء يمرح ويجرى فى الدار إلا هذا المكان . فالهدوء مخيم عليه .. تمنت لو أنه من الزجاج .. لكن .. سألت نفسها : ألم تمر بهذه التجربة ؟!. وحاولت أن تتذكر فوجدتها أغمض من يوم ميلادها .. وهى مؤكد قد ولت بدليل أنها موجودة .. ولكنها لا تذكر يوم ولدت .. وكذلك أضحى أمر زواجها .. هل كان باب حجرتها مقفلا هكذا عليها هى والرجل الذى يشد الآن على وسطه « شملة » عريضة ويشتغل ؟! وهل كان بابها صامتا مطبق الشفتين مثل هذا الباب ؟ ..

وهزت رأسها : « ما أظن .. كنا نحن الاثنين مشغولين تماما بما يجرى خارج الغرفة .. وبالأصوات التى تنادينا فى دارنا هذه كل صباح .. أما هذان الاثنان فقد نسيا » .

وعاودها إحساسها بالأهمية وهى تحمل اللبن إلى مخزن اللبن و - المترد - على كفها تمشي به بسرعة وبقايا شباب .. ثم واصلت عملها في الدار حتى توسطت الشمس كبد السماء .. وكانت عندئذ تنظف الحظيرة..سمعت صوت العروسة يحييها .. وكان وجهها بادى الأبهة

كزرع سقى حديثا .. نظرت إليها الأم وردت عليها التحية ثم سألتها عن ابنها فردت العروسة بسذاجة من تنسيه الفرحة حالة الآخرين :

ـ عزت ؟!.. فى أحلى نومة ..

غمغمت الأم بالضحك و لم تستطع الفتاة ذات الثوب الأحمر السعيد أن تفهم خفايا الغمغمة لأن بينها وبين ذلك من العمر ما يوصلها لأن تكون فى موضع الأم الكبيرة .. وعندئذ قالت الفتاة :

ـ ناولينى هذه الفأس يا أمى لأقوم بها ..

فقاطعتها فى حماسة :

ـ لا .. لا .. أنت عروسة حتى الآن . فكيف تلوثين كفيك بهذا ؟!.

ـ سيحدث هذا يوما .. فلماذا لا يحدث الآن ؟

فزادت حماسة الأم . وزاد يقين الفتاة ..

لكن الحقيقة كانت خافية عن المرأتين .. كانت الأم فى عملها هذا تريد أن تقول بلا كلام للمرأة الطارئة على دارها : « انظرى .. من أجل الحناء فى كفك أغمس كفى فى الوحل » . بينما كانت المرأة العروس تريد أن تقول بلا كلام : « دعينى أفعل متطوعة ما أفعله يوما ما غير مختارة » .

****

وانقضى النهار ..

لم يكن الشتاء قاسى البرد .. واجتمع الزوجان القديمان والجديدان فى حجرة الأم أمام عشاء شتوى جميل .. قوامه حساء ولحم وأنفاسه توابل .. ومن خلال الفرن وما فوقه من الماء الدافئ يشع شىء يدلك الأطراف .



« عزت ؟!.. فى أحلى نومة ... »

ثم انتهى العشاء ..وكان الأب وحده هو الذى يحمل عبء الحديث.

وفجأة سمع صوت البقرة فى الحظيرة . إنها تنادى اليد التى تحلبها . وبسرعة خفت المرأتان إلى حيث الوعاء الذى سيحلب فيه اللبن . وكانت العروس أسرع من ربة الدار القديمة لكن الأم أدركتها بسرعة وأمسكت بالوعاء قائلة لها :

- لا .. اتركى ذلك لى .. وفى الدار أعمال كثيرة ..

نظر الرجلان الجالسان على الحصير فى الدفء كل منهما إلى الآخر وظلا صامتين يرقبان ماذا سيحدث . لعل واحدة منهما تتخلى للأخرى عن هذا التاج . فوعاء اللبن ليس شيئا عاديا فى الريف .. والسيطرة على مخزن اللبن سيادة عليا خصوصا عند الأسرة الفقيرة .

كل من المراتين تمسك الوعاء من طرف .. شارة السلطة ورمز البركة والأمانة والاقتصاد . إن بخلت به الكبرى على الصغرى فمعنى ذلك أنها نبذتها . وإن أخذته الصغرى من الكبرى فمعنى ذلك أنها أصبحت ولا أحد يحتاج إليها .

كان الرجلان لايزالان صامتين . والوعاء لا يزال بين المرأتين . وأخيرا قالت الأم فى صوت صارم :

- قلت لك .. اتركى هذا لى .

ردت العروس فى طاعة لا تخلو من خبث :

- حاضر .. وعلى أنا تنظيف الحظيرة كل صباح ..

لكن الأم أخذت وعاء الحلب وأسرعت كأن أحداً يطاردها . و لم تجلس العروس مع الرجلين بل ذهبت إلى حجرتها .

وكان صوت الحلب يأتى إلى الأب والابن فى اتساق حزين بينما الأم تمسح على ضرع البقرة وتستدر اللبن وكأنها تملك الدنيا..

طول هذه الليلة كان الحديث بين العروسين يومئ إلى أن القسمة غير عادلة .. يد تغمس فى اللبن ويد تغمس فى الطين ؟ .. هذا حرام .. ثم .. إلى متى ؟! .

لكن هذه المشكلة المعنوية وجدت غذاءها الدسم على الدوام .. حتى قال الأب لزوجته ذات ليلة : وبعد هذا العمر كله تغمسين أنت يدك فى الطين وتغمس هى يدها فى اللبن ؟! ما فائدة ما عملناه إذن ؟!

وفى الحجرة الآخرى كان الابن يقول لزوجته : وهل ضرع هذه البقرة ملك لأمى وحدها ؟ . ماذا يحدث لو أنها مرضت .. ولا أقول ماتت لا قدر الله ؟! .

وردت العروس فى لين وطراوة :

ـ إذا كان لابد من قسمة العمل فلا يكون إلا ما يريده الكبار ..

ـ أى . آآآ هيه !!

وانتهى النقاش بهذه الغمغمة .

****

لم يشعر أحد من هؤلاء الأربعة بما هو قاطن فى نفسه كما ننسى لون ثيابنا .. لم يشعر أحد منهم بهذا الشىء الغريب .. بأن البقرة أصبحت خصما للجيل الجديد فى الدار .. وهما على حبهما لها ككائن

يطعم ويحرث ويدر نقودا — على هذا الحب — فقد كان خصما .. مثل غلام افترق أبواه .. أو هبت عليه زوبعه خلافهما .

وساد فى الدار من أجل مخزن اللبن فكرة — بنت سفاح — لا يعرف لها أبوان . هى أن كل طرف من الأطراف وقع فريسة الظلم للطرف الآخر ..

على أنه لابد من وقوع حوادث عادية فى مكان ، غير أن الظروف غير العادية تجعل الحوادث العادية غير عادية كذلك .

ماذا جرى للبقرة ؟!

فى إحدى الليالى أضربت عن أن تدر لبنها . و لم يسع الأم إلا أن تضربها بأقسى عصا .. ووقفت الفتاة على باب الحظيرة تنظر إلى هذا وتتصنع الأسى و كأن حماتها تضرب فلذة كبد هذه الفتاة .

ودخلت حجرتها ودفنت وجهها فى صدر زوجها وأخذت تقهقه : « البقرة خاصمت أمى » .. أما الأب فقد أخذ يسأل عن زوجته عندما دخلت عليه عن مغزى ما حدث وكأنه يسأل عن حادث جاسوسية لا عن حادثة طبيعية .

لكن فى ليلة تالية حدث أن رفست البقرة الأم فقلبتها على ظهرها بوعاء اللبن . وصرخت الأم فهرع إليها من بالدار . وهم ثلاثة .. معروفون ..

أما الأب فكان غاضبا يسب ويلعن .. العيشة .. والدنيا .. وحكم الزمن .. وقاد زوجته إلى خارج الحظيرة وفحصها بسرعة تحت نور مصباح حملته العروس .. وكانت لائذة بالصمت هى وزوجها . مخافة

أن يقال ما لا يعجب . فأصبح الصمت شماتـة .. وفعـل الليـل فـى مثـل هذا الحادث ما يفعله الليل دائما .. حتى أصبح فى الغد .. مشكلة ..

****

أضربت الأم عن حلب البقرة فى الصباح لأن الحادثـة أصبحـت فـى رأيها أغمض من أن تفهم .. فلم يحدث مثل هـذا مـن قبـل . وأضحـت البقرة فى نظـر الجميـع كائنـا غريبـا قـادرا علـى التحيز وسمـاع الهمـس والوشاية والميل والهوى ..

ودخلت المرأة الجديدة لتحلب ..

وجلست الأم خارج الحظيرة من بعيد وهى تتمنـى أن يحـدث للفتـاة أضعاف ما حدث لها . لكن . نفس الحيـوان استكانت للفتـاة وسمعـت الأم فى الخارج صوت الحلب .. ـ شيش .. شيش .. شيش ـ فكـاد جنونها يجن . وانسربت خارجة مـن الـدار بدعـوى أنهـا ذاهبـة تعـزى. ودخلت الفتاة فى صباح هذا اليوم الحرم المقدس .. دخلت مخزن اللبن .

وكان طبيعيا أن تحاول الأم التجربة بعد أيام . لكنها خافت من شيء ليس من المؤكد أن يقع لكن وقوعه كان مرعبا لها . هو أن تمتنـع البقـرة عن الدر .. لها .

ولن تتبادل المرأتان العمل . لـن تضـع الأم يدهـا فـى طـين الحظـيرة. فحملت الفتاة العملين . و لم يبق للأم إلا أن تثرثر وتشكو . وكان لابـد للنـاس مـن أن يصدقوهـا « نعصـر النبيـذ ونعـرق ، وهـم يسكـرون ويرقصون ... هذا ظلم .. » .

وحاولت الأم عندما مرضت منذ شهرين ، حاولت أن تذكر وهى مريضة أنه كان عليها أن تتخلى عن أعمال كثيرة وأن تصفق لزوجة ابنها وهى تعملها .

واستطاعت أن ترى صورة نفسها وهى تنكر على العروسة ثوبها الفرحان .. وعلى الديك الهندى مرحه .. وعلى الحمام فى مسكنه فى الدار أن يخفق بجناحيه حول الفتاة .. وعندئذ أدركت أنها كانت تقاوم انسحاب الشباب أو شروق الشمس أو سقوط المطر .

لكن الغريب أنها لم تدخل الخطيرة على البقرة . كأنما أعتبرتها سرا للخيانة أو نقطة رديئة للتحول .

وذات صباح دخل عليها ابنها من الحقل فى حالة ارتياع ، فضربت الأم صدرها وسألته عن والده .. ماذا جرى له ؟!.

فقال الابن بصوت متهدج :

ـ لا .. لا تخافى يا أمى .. أبى بخير .. لكن .. فقط . البقرة .. أنقذناها بالسكين ..

وأطرق . وشهقت الأم .. حزنت بلا شك .. لكن .. من خلال وجوم الحزين كانت تسمع تنهيدة ارتياح كأن خصما قد غاب .. وكأن خصمها الثانى لن يجد ميدانا للصراع .

وذابت دموعها تتدارك .. لكن الابن مسح لها دمعها بمنديل كان مبللا بدمع عينيه .

حقله الصغير المربع يقع على ناصية الطريق تحفه ترعتان ، إن غاب من إحديهما الماء لم يغب من الأخرى . وفى هذا الحقل الخضراوات طول النهار . صاحبه فلاح صغير لا يكف عن الغناء طول النهار .. وفى ساعات الظهيرة أيام الصيف يلوذ بالكوخ الذى بنته زوجته بيديها بمهارة منقطعة النظير وأنشأت له سقفا من الغاب مغطى بالطين المخلوط ، وجعلت له فى كل حائط نافذة صغيرة يرى الكوخ منها الشمس ويرى صاحب الكوخ من خلالها رقعة الحقل فى أى وقت من النهار .

أما فى أوائل الليل فكل شيء يسكن ودلائل الاسترخاء والراحة تبدو على المكان ، والكلب يرقد قرب أحد الجدران يغفو ويصحو وينبح لكنه موقن بغريزته أن ليس هناك خطر يتهدد الحقل .

وكل ما تشتهيه نفسك من خضراوات الموسم من الممكن أن تجده هنا ، وفى وسطه بعض شجيرات من الفواكه منثورة بطريقة لا يضبطها نظام ، وعلى حافة الحقل نباتات طيبة الرائحة يغلب عليها النعناع والريحان . وعلى مقربة من الكوخ عش صغير يرقد فيه البط «البكينى» بعد غروب الشمس على أنه يظل طول النهار سابحا فى الترعة .

وقد تفوح من هذا الكوخ رائحة شيء يقلى أو يطبخ أو يحمر ، وهو لذلك ولجمعه بين مزايا الحقل والمنزل أصبح علامة من علامات الطريق فى القرية فهم مثلا يقولون : « بعد أن تترك كوخ عبد الباقى وتتجه إلى

اليمين تجد كذا » ، أو يقولون : « حدث ذلك عند كوخ عبد الباقى بعد غروب الشمس أو قبل شروقها » .

والأماكن كالأشخاص ليس من الضرورى لكى تشتهر أن تكون غنية ، لكن من الضرورى لها وللأشخاص أن تكون ويكونوا أصحاب صفة خاصة ، لأصابعها بصمات ولوجودها نكهة هى السر الطبيعى لكل مخلوق .

أما صاحب الأرض والكوخ فهو شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، من الممكن أن تعتبره نموذجا كاملا لفلاح مصرى ، وهو منذ صغره عرف الجد والتسامح وخفة الروح .

لم يكن له أب ، وكان أبوه صيادا فغرق وتركه فى بطن أمه ، وكم تمنت الأم أن يلحق الجنين بأبيه ، لكنه رأى نور الحياة بعد شهور وسمته أمه عبد الباقى تفاؤلا له بطول العمر .

ثم انحصرت دنيا الصبى فى شيئين : فى شخص أمه التى كان يحبها أكثر من الدنيا ، وشخص فلاح من القرية عمل عنده أجيرا ليرعى ماشيته ، وكان فى حقيقة الأمر رجلا طيب السيرة فاعتبره الصبى والدا له فى صمت من يعمل لصالحة ورضاه .

أما أخوه الأكبر فكان مخالفا له كل الخلاف حتى كادت الأم أن تنسى أن لها ولدا غير هذا الصغير ، حتى أتى اليوم الذى تركته فيه إلى رحاب الله .

وكانت هذه القطعة من الأرض التى يزرعها اليوم عبد الباقى أرضا مريضة فى بعض أرجائها بقع كبيرة من الملح ، وهى ملك لذلك الرجل الذى كان هذا الفلاح يعمل عنده وهو صبى .

ولما شب عوده فوجئ الناس بأن عبد الباقى تزوج .. كان فى الثامنة عشرة .. وقالوا له : أما كان من الأحسن أن تؤجل هذا حتى تؤدى الخدمة العسكرية ؟! فضحك الشاب طويلا ورد قائلا : أخطأتم فى الحساب ، فأنا وهى سنزرع معا ونأكل معا ونشبع معا ونعيش معا ونموت معا . يعنى أننا سنؤدى الخدمة العسكرية معا . ألم تفهموا غرضى ؟ لن أكون شجاعا إلا إذا تذكرتها وتذكرت الدار والحقل ؟!

ثم حدث أن فوجىء الناس بشىء آخر . راوا الشاب وزوجته يمسكان الفئوس ويحفران حول هذه القطعة الملحة خندقا عميقا يعرف الفلاحون أن معناه مص الأملاح لتصلح الأرض للزراعة .

فأخذوا يتساءلون : مالك ولهذه الأرض يا سيد عبده ؟! ثم عرفوا أنه قد استأجرها من صديقه القديم الذى كان يعمل عنده وهو صبى صغير فضحكوا من هذه الصفقة المغبونة .

غير أن ضحكاتهم بمرور الوقت أخذت تتحول إلى ابتسامات إعجاب ، فالأرض مثل الحبيبة محتاجة دائما إلى الرعاية والسقى والإلحاح ، حتى إذا ما استجابت جاء دور العطاء وارتاح الحبيب .

ولما أخذت هذه البوادر فى الظهور .. لما بدأت الأرض تعطى بعض الزرع وبنت الزوجة الكوخ ، استدعى الزوج للجندية .

كان معه طفلان .. ولدان صغيران ، فقال للناس قبل سفره وهو يضحك ويشير إلى الأرض والزوجة والأولاد :

ـ انظروا .. هذه غنائم أخذتها من الدنيا وسأذكرها هناك .

***

بينما كان الطفلان يلعبان على مقربة من الكوخ ، وزمرة من البط « البكينى » تخرج من الترعة فى طريقها إلى العشة ، ورائحة الباذنجان المقلى تفوح من الكوخ ، وأزهار الباذنجان البنفسجية تتألق تحت أشعة الشمس الغاربة .. إذا بطفل يهتف :

ـ عاوز مين ؟

فرد صوت رجل بعد أن قبله :

ـ كل من هنا . كل الناس .

ويطل وجه امراة حسناء متعبة لوحتها شمس الصيف ، تطل من إحدى نوافذ الكوخ الصغيرة جدا وتهتف :

ـ عبده ؟ .. عبد الباقى ؟.

وفى صباح اليوم التالى يحس كل أهل القرية بعودة عبد الباقى ، فالغناء قد ارتفع فى الحقل ، وهناك أشجار موالح تنتشر فى سرة الأرض ، والخندق الذى يمص ملوحة الأرض يعمق بالأيدى . ثم يمر الوقت فتزرع فى حوافى الحقل نباتات ذات رائحة عطرة ، أهمها النعناع والريحان .

وتستجيب الأرض لصديقها الذى لا تغفل عنها عيناه فتسخو ، ويبدأ دور العطاء بعد دور الأعباء ، وتظهر هذه الأسرة البسيطة لعيون القرية وكأنها أغنية حب ، وتمتزج الأشياء .. العمل والغناء والزوجان والأطفال والنجاح بعضها ببعض حتى تبدو هذه الرقعة

الصغيرة من الأرض والتى عاش فيها الملح سابقا ، تبادر ، كأنهما مدخل الجنة .

نرى اليوم هذا الشاب ابن الثامنة والعشرين من العمر وهو يغرس أشجارا من الكافور بطول أحد أضلاع الحقل ، لأن هذا هو موسم تفتح البراعم . غرس ثمانية وعشرين شجرة وقالت زوجته :

ـ كأن كل شجرة من الأشجار تمثل سنة من عمرك يا عبد الباقى .

فابتسم موافقا . وبدا المنظر رائعا ، وسأله الناس :

ـ كيف تغرس الأشجار فى الأرض ، وأنت مستأجرها فقط ؟

فرد قائلا :

ـ لقد اشتريتها من زمن واسألوا ، أسألوا صاحبها القديم الرجل الطيب .

ولم يمض هذا الحادث حتى وقع شىء جديد تساءل الناس عنه . قالوا :

ـ هل استدعيت للجندية حقيقة مرة أخرى يا عبد الباقى ؟

فرد قائلا :

ـ انظروا . هذه أشجار غرسناها ، وهؤلاء أطفال ولدوا وكبروا ، وهذه زوجة كأنها رجل ، والأرض التى لم تكن ملحى أصبحت ملحى .



فثقوا أنني بخير وسأعود إليكم بالسلامة

فماذا تريدون بعد ذلك ؟ تعالوا اشربوا معى الليلة شايا قبل أن أسافر ! تحية وداع .

وفى صباح اليوم الذى قضاه عبد الباقى فى حقله قبل سفره قال للزوجة وأكبر الأولاد :

ـ تعالوا ... اسمعوا هذه الحكاية .. هذه الأشجار قد زرعتها منذ أسبوع واحد وهى لا تزال عرضة للجفاف . إنها محتاجة إلى رعاية وعناية ، عددها عدد سنوات عمرى ، قلنا هذا سابقا ، يعنى أن هذا فى نظرى هو عمرى الحقيقى .

اسمعوا عليكم أن تسقوها وتسهروا عليها ، فإذا مر عليها الوقت بسلام و لم تجف منها شجرة فثقوا أننى بخير وسأعود إليكم بالسلامة .. هذه الأشجار هى .. أنا ! ما دامت بخير هنا فسأكون أنا بخير هناك ، كل يوم عدوها .. واسقوها .. وحافظوا على خضرتها . هذا إذا كنتم تريدون أن أعود إليكم بالسلامة .

وهذه القبلات لكم وللأشجار التى زرعناها معا .

جُولييت .. فوق سطح القمر

من كان يظن أننا سنعيش فى كل عصر يا عزيزتى « جولييت» ؟ من العصر الذى كانوا يحملون فيه المشاعل أمام موكب حاكم « فيرونا » حتى هذا العصر ؟ وهذا العصر لم يبعث الدهشة فى شخصك ولا شخصى ، لأننا زوجان .. لعلى مخطىء .. فأنا أقصد أن أقول : فنحن روح لمست كل قلب من ذلك العهد فى ربوع إيطاليا حتى اليوم .. فى كل عهد وأرض . فنحن إذن روح تسكن حبات الندى وقطرات الدموع . ضياؤها فى كل لؤلؤة وبريقها فى كل عين .

لا السم ولا القبر يا حبيبتى .. كلا ولا شواهد الرخام هى قصتنا. بل قصتنا أننا ضربنا الزمن بكفوفنا كما نضرب سطح نهر ساكن فتمزقت الصفحة الهادئة واتسعت دائرة الموجة التى خلقتها أيادينا فأصبحت الزمن كله . فنحن كما تعرفين نسكن أشياء معنوية علوية . نحن نسكن همس القبلات . وحرارة التنهدات . ونحن نسكن أرق الحب وتحت أجفان التى نامت على حلم جميل . ونحن نسكن اللحن والأغنية ولوعة الفراق وأوراق الربيع وحتى عروق الشجر التى عراها الخريف .

وربما كان من المختصر أن أقول : إننا نسكن « طبيعة القلب ذاته » ولذلك فقد عشنا حتى هذا العصر .

تقولين لى إنك غير معجبة به وتبتسمين يا حبيبتى لتحمليني على الاستسلام . لقد أصبح لك اليوم حق الكلام وحق الاختيار وصوت فى

صناديق الانتخاب ولآلىء كثيرة وإن كانت صناعية . فلماذا لا يعجبك هذا العصر ؟!

كانت شوارع « فيرونا » تقفر من المارة بعد غروب الشمس تقريبا ، وكان المتبارزون يهددون أمن الناس . واليوم .. نحن فى عصر تنتظر فيه المدن غروب الشمس لتنعم بملذات الليل . لكن المتبارزين ظلوا فى كل مكان يهددون أمن الناس ، وما دمنا قد عشنا كل هذه العصور فعلينا أن نعتاد كل شىء كما نعتاد الانتقال من فصل لفصل خلال أيام السنة .

على أننى أرى أن شيئا واحدا يضايقك . ربما كان معنويا أكثر من أى شىء آخر .

أكاد أسمع همسك أيتها الساحرة القديسة . بل لقد سمعته وإن كنت بعيدة عنى . همس كنبرة أجراس صغيرة من الفضة يقول : « لا شىء عندى فى الدنيا يساوى ليلة الشرفة » ..

إنها يا عزيزتى تلك الليلة التى كانت ظلال الأسوار فيها ترتمى على الحديقة والقمر يسطع .. سطع أخيرا على بيتكم . وكان القمر وكأنه يلقى بنوره كله على وجهك وحده . كأنما ترك بقية الأشياء فى الظلام ، كنا وقتها فى أولى غمرات الحب . والمخارف تملأ قلب « المرضعة » مرضعتك يا حبيبتى . ولما أبديت لى خوفك من أن يكون ما يحدث بيننا الآن نزوة وتمر ، نظرت أنا إلى القمر وأقسمت لك عليه بحبى فاحتججت « لأنه لا يدوم على حال . وهو فى فلكه يغير صورته كل شهر . وإنى أخشى أن يكون حبك مثله متقلبا » .

****

آه يا عزيزتى جولييت ..

عبرنا كل هذا الزمن ورأينا ذلك القمر .. هو نفسه .. هو ذلك الذى أطل علينا فى أرض « فيرونا » ، رأيناه على مر العصور يرمى بخيوطه البنفسجية على النوافذ والحدائق والحقول ويعتصر من أشجار العنب نبيذ المحبين ، وتمنينا ذات ليلة عندما اشتد الصخب والصراع من حولنا ـ تمنينا أن لو كنا أنا وأنت فيه وحدنا . ثم تخيلنا أن روحنا ستتخذ الطريق إلى ملكوته يوم نموت على وسائد الريش ، ولما قضى علينا أن نموت بالسم فى جوف قبر ، لم تستطع هذه الظلمات ولا المآسى أن تكبل خيالنا . فقد كنت معك نعبر الفضاء إلى القمر لنكون بعيدا عن الدماء التى سفكوها على قبور الموتى وأبواب الأحياء . وكنت تهمسين لى : أننا سنجد هناك كل شىء على ما يرام . إن لم تكن هناك جنات فهناك أى شىء يرضينا . سنأكل على أرض القمر ما سنجده كما فعل آدم وحواء أول يوم هبطا فيه من الجنة . لم يجدا فى الأرض تفاحا ولكنهما عاشا وأنجبا كل هؤلاء من سعداء وتعساء » .

وها نحن أولاء أيتها الساحرة القديسة قد عبرنا الزمن وعشنا ، وصعدنا إلى القمر فى نبضات القلوب .. قلوب الذين صعدوا إلى هناك وتحت أجفانهم وهم يحلمون .. وكانت الصورة تملأ عيوننا على الرغم مما قال العلم هو أننا ستراه هناك أكثر سحرا . يغرق ليله طول العام فى ذلك النور البنفسجى الذى رأيناه على الأرض ، أما نهاره فهو نهار الجنة . شمسة فى مثل متعة الظل . وظله فى مثل متعة الشمس .

كنت أنا وأنت نطل من خفقات قلوب الناس فوق القمر ومن بين أهدابهم ، لنرى تلك الأرض الجدباء العاجزة عن « الجدب » الكامل ، المشوهة البشرة كفتحة البركان .

ونظرت إليّ نظرة حزينة كأنك فقدت شيئا يقرب من قيمتي . فقد كنت تحبين الكواكب . وتعرفين مرور ساعات الليل التى أرقت فيها من أجلى وأرقت فيها من أجلك ـ تعرفينها ببعض النجوم .. ما غاب منها وما طلع . وقلت لى بأهداب عينيك التى حمل معظمها على أطرافه دمعة : « هل تصلح أرض هذا الذى أقسمت به على حبى ، هل تصلح أرضه لأن يسير عليها الطفل العظيم « كيوبيد » إله الحب ؟

آه يا روميو .. إنها غير ممهدة .. جباله مالها مثل مسامير جهنمية ؟! إنه يبدو لعينى كأنه خارج لتوه من حريق .. هذا الكوكب .. لكنه قد برد » .

وكان الشبان يذكرون أحبابهم على الأرض ويغنون من خلال الكمامات . نعم وكان فيهم شاب جميل الصوت ينتقل بأحماله على أرض القمر وبدت الأغنية الأرضية فى هذا الفضاء الذى يصور مرحلة من مراحل بدء الخليقة ـ بدا وكأنه خطا خطوة نحو الزمن الحاضر ولو أن أفواه الكهوف الكالحة لاذت بالصمت لأنها لم تعرف بعد : ما هى « اللغة » ؟!

شوارع « فيرونا » يا عزيزتى أجمل من هنا .. إن العطر الحقيقى لكل مكان هو أنفاس البشر . والحديقة التى يصخب فيها الناس ، هى وحدها التى تجعل أزهارها تتضوع ، أما حديقة قصر الأمير ذات

الأزهار النادرة والتى يجوس خلالها وحده بلا أنيس ولا رفيق ولا حبيب ، فإن أزهارها تحبس أنفاسها حتى تذبل أو تموت.

وعلى سطح الأرض فضاء قاحل اسمه الصحارى . وعلى سطح الأرض أشجار مزدحمة اسمها الغابات . وهما صنوان ..هما رديئان لأنهما حالا بين البشر وبين السكنى فيهما .. ولذلك أنت تسمعين الحنين فى كل كلمة تخرج من فم هؤلاء الذين داسوا ودسنا معهم أرض هذا الكوكب .

****

انظرى يا جولييت نحو سماء القمر .. آه .. إننى أراها الآن بعين هذا الشاب هناك كرة صافية الزرقة كبيرة . سحرها الإلهى لا يوصف ولو كانت هنا شرفة داركم وأنت مطلة منها فى الليلة الأولى من لقائنا ـ لبدا كوكب الأرض هذا لعين العاشقين أبهى من نور القمر . هناك مولدنا وسكنانا . على ثراها وتحت نسيمها المنعش عذب العذاب .

لكن يا حبيبتى من يصدق أن هناك فى هذا الكوكب الصافى سكنت أسرتان تطاحن سادتهم وخدمهم ؟ وحتى خيولهم كانت إذا ما التقت تصارعت ؟ أسرة « كابيوليت » وأسرة « منتاجيو » أسرتى وأسرتك . سفكوا الدماء على أبواب الأحياء وفوق قبور الموتى . وعلى الرغم من هذا كله فقد نمت الأزهار . واحتضن رجل الدين قصة حبنا فى صمت كما تحتضن الدجاجة بيضها ، حتى انهزم الكره وأفرخ الحب . وعشنا هكذا فى خفقة كل قلب وتحت الأجفان إذا عراها النوم أو داعبتها الأحلام .



لبدا كوكب الأرض لعين العاشقين أبهى من نور القمر

هل نستطيع أن نعيش وحدنا ـ أنا وأنت ـ فى هذا المكان حقيقة، دون أن نرى أفراح الأرض وأتراحها ، والقلق والمخاوف والحروب ؟!

إن الحب يا عزيزتى هو الشهد الذى يستخلص من كل الأزهار .. أزهار الخردل وأزهار الشوك وأزهار الأصص على أبواب المقابر وممشيها . لأنه في حقيقته نبضات عبادة ترسلها القلوب المختارة لتكفر عن خطايا البشر ، وحتى عن هجوم النسور على أعشاش العصافير . وقد تكفر عن الخطايا المستمرة التى لا تنقطع فى عالم الأسماك الذى قد نعيشه . يتعذى الكبير بالصغير والأكبر بالكبير . وهذه الأفراح والأتراح والقلق والمخاوف والحروب هى يا عزيزتى كل الأزهار الشريرة التى صنع القلب منها شهد الحب . لذلك فنحن لا نكره الأرض .. وحتى أول عين رأتها من فوق قبل أن نصل إلى القمر تغنت بسحرها .. جاذبيتها شديدة حتى ولو كانت معلقة فوقنا هكذا تبرق .. انظرى .. تبرق بجواهرها الهائلة التى أثقلها اللّه بها . بمياه المحيطات والبحار . والثلوج على قمم الجبال . بالجواهر البشرية فى بقاع كثيرة من نواحيها .

هل أبنى لك هنا بيتا وأزرع لك حديقة ؟ هذا ممكن لكن فى مستقبل قريب . وأعيش معك هنا وتعيشين معى لنجعل من القمر أرضا مثل التى تركناها .. وسنحن للناس : فنحن لا نعيش إلا جماعات . ولنفرض أن معنا ثالث . فإذا كان رجلا فسرعان ما تتكرر قصة « قابيل وهابيل » على أرض القمر . سيقتلنى من أجلك أو أقتله أنا ..

تصورى يا عزيزتى كيف يستقبل القمر أول قطرة من الدم . وكيف يحوى أول لحد .

أما إذا كان معنا ثالثة فماذا تظنين أنه يحدث . ها . ها . ها . تقولين إنك ستقتلينها من أجلى أو هى تقتلك .. ربما .. آ .. أنا لا أتصور ذلك . بل أتصور صورة أغرب ، سأكون بينكما مثل حبل تشدانه حتى ينقطع . ستقتلانى معا . شريكتين فى القتل . لكن بلا تدبير ولا سبق إصرار . فالمرأة « كجماعة » لم تشهد فى التاريخ حربا ولكنها « فردا » تعتبر أعظم محاربة . ستسلطان الحب على قلبى بطريقة النور على العين حتى تفقد البصر . ستغرقانى فى بحر من الحب والغيرة على أرض القمر . حتى أموت .

عندئذ تلتفت كل منكما إلى الأخرى وتبكى . ثم تلتفتان نحو كوكب الأرض اللامع الوهاج المعلق فى سماء القمر فى أبهة علوية . وتسأل كل منكما الأخرى . متى نقلع إلى هناك ؟!

***

عزيزتى ، ها نحن قد عدنا إلى الأرض من جديد لتسكن خفقات القلوب ، وننام تحت الأجفان فى كل عين ، حتى يصعد الناس جميعا إلى القمر .

حَــــارسْ الحيَــاة

عندما مات أبوه فى هذه الليلة وجد نفسه وحيدا ، وحيدا تماما. وشعر بتمزق حاول وصفه فعجز .. شعور مستغرق شامل يجعل الواصف والموصوف شيئا واحدا .. نعم .. حاول وصفه لنفسه فعجز .

كان عائدا من السوق يحمل لفة من الطعام .. لا تعنينا محتوياتها . فكثير من الناس ليس عندهم فرصة ليختاروا ما يأكلون.

ودخل الحجرة على أبيه فوجده ميتا ، وعندئذ وقف يدق كفا بكف ويقهقه بأعلى صوت . وضع الطعام على طبلية صغيرة وجلس القرفصاء ينظر إليه وإلى الرجل الراقد فى صمت أبدى ، ثم عاد يدق كفا بكف ويضحك .

هذه المنطقة الفسيحة التى يجلس فيها الآن كانت تحت أمره وأمر أبيه ، وبما أن أباه قد مات أذن فقد ورث هو هذه المملكة .. بكل محتوياتها من مبان وأشجار وأجسام . هى ساكتة هادئة بطبيعتها لكنها الليلة فقط ـ وعلى التحديد ـ فى هذه اللحظة غطاها السكون تماما .. خصوصا عندما دخل يحمل الطعام ووجد والده ميتا والراديو يغنى له تعبير صابئ بالموقف . فقد كان تركه مفتوحا . وعندما دخل أقفل الراديو فاكتست المنطقة هدوءا أشبه بهدوء المقابر .

وأخذ الشاب الجالس القرفصاء يردد فى نفسه : « هدوء المقابر » .. وضحك وبكى .. وتلفت حوله . إنه لا يسمع صوتا لأحد . والأشجار ليست عليها طيور .. والحجرة مربعة موصدة النوافذ

ونوافذها صغيرة . والليل ليل خريف « آه .. » وبابها مفتوح على ساحة فضاء مربعة بها شجيرات لا يعرف اسمها قتلها العطش عدة مرات من يوم أن كف بصر أبيه ، هذا الراقد الآن بلا نور فى عينيه . وأصبح الابن من يومها بصره يقود خطاه إلى كل مكان . ويقوم بأعمال الحراسة ، على أنه لم يتجاوز بعد الثامنة عشرة من العمر ، طرى العود والعزيمة ، لكنه لم يحس بسكون المقابر إلا هذه الليلة . « سكون المقابر » ؟

وكان لا يزال جالسا القرفصاء .. حائرا .. وسأل نفسه . هل هذه أول حادثة من نوعها ؟ لكن ماذا ينتظر إذن ؟!

أراد أن يقوم فعجز ، خرج ثانيا إلى الفناء المكشوف ووقف ينظر ، خفق قلبه ، شعر أن سنه أصبحت أصغر من حقيقتها . رجل مكفوف كان يتولى الحراسة المحتاجة إلى بصر ، هو الذى منحه شخصيته خلال العامين الماضيين ، وقد أقام معه فى هذه الغرفة بين المقابر ! وها هو ذا أبوه قد مات . وها هو ذا يسمع من بعيد أنينا . إنه أنين الخريف بين غصون بعض الأشجار البعيدة فحسب .

ولأول مرة تبين أن هذه المبانى مقابر ! وسمع السكون . وأحس بالخوف التقليدى المألوف من هذه الديار ذات الأبواب والشبابيك، والأشجار والشوارع . أنكر صمتها فى هذه الليلة ، خيل إليه أن الخرساء نطقت فجأة وملأت قلبه بالوساوس . غادرها « الأنس » بسكون الرجل والراديو يغنى جنبه حين كان قد ذهب لشراء الطعام.

ونظر إلى هذه الرقعة الفسيحة فى أحضان الجبل نظرة من يودع شيئا قد كرهه حقا . ولمع على الأفق الشرقى قرص من النحاس لقمر كبير صنع فى الجبل رسوما لا توصف معظمها خيف .

و لم يعد يستطيع أن يلقي نظرة على « الخفير » السابق وعلى والده ، فقد أخذ يفكر فيما هو أهم ، و لم يكن فى حاجة إلى إقفال باب الغرفة عليه لكنه لا يدرى لماذا دخل وأدار مفتاح الراديو الصغير على محطة « القرآن » وترك المكان ومضى يجرى . ولأول مرة وهو يغادر باب الحجرة أحس أنس الكلام الذى سمعه من الراديو ، إذ قد طالما سمعه و لم يؤنسه .

كانت المشكلة الآن هى : « أين يدفن أبوه » ؟

وضحك وهو يجرى . تذكر أن والده ربيب المقابر وليس له مقبرة . وأنه حارس لمقبرة إحدى الأسر ، لكن هل سيدفنونه فيها ؟

و لم يدر لماذا بدا الأمر معضلا خلاصته .. هى .. أن هذه « المملكة » طردت الحى والميت على السواء فى هذه الليلة . وابتسم حينما راودته فكرة أن يكون أبوه راقدا فعلا فى المقابر وليس « مدفونا » ! وأحس فيها تناقضا أشد من تناقض « الحياة » أو أقسى من ضراوة « الحرب » حين تصبح الجثث فى مكان لا يخص الأموات فى الشوارع ؟ لكن .. موقف أبيه .. (هز رأسه) وكان يجرى وما لبث أن دق الباب على رجل هو صديق أبيه ومن أهل المهنة . وخرج إليه فأخبره الابن بهلع بما جرى . ثم سأله فى تلعثم عن المكان الذى يمكن أن يدفن فيه أبوه ؟ أجاب الرجل فى شجاعة حاسمة :

- مقابر الصدقة يا بنى .

- مقابر الـ ..؟

- وهل هذا يحزن ؟ وسكت قليلا وسعل من كثرة التدخين ثم استطرد :

- عمك أبو العلا البناء حكم عليه الزمن وبات فى الخلاء عدة ليال .. « هى هى هى » ومصيبتك أخف .. أن ترفض مقبرة مشهورة خفيرا مكفوفا مات فى وسطها .. « وبشبه مرح حزين » وعلى كل حال لا داعى أبدا لأن نجلس أو نرقد جنب ناس لا يحترموننا .. هه !

وكاد الشاب يقهقه .. لكنه تبسم ومسح دمعة بأصبعه السبابة وهى مثنية وبعد أن طال الصمت نوعا ما انفجر الشاب يقسم :

- لكن والله يا عم الحاج عمرى ما أحرس هذه الأماكن حتى ولو خطفتها الشياطين !

ترقية كبرى منحتها الحياة للخفير الصغير وريث الخفير الميت . فقد أخذه بعض أهل الخير ليعلموه إطلاق النار من بندقية فى الحقول القريبة من الأهرام وكيف يصيب الهدف تمهيدا لتسلمه مهام منصبه الجديد .

وعندما أخذ يطلق النار دارت بفكره حقائق . أهمها أن حراسة الموتى لا تحتاج إلى رصاص . وعندما كانت البندقية تهز ذراعيه هزا شديدا مثل تيار كهربة سخى ،ويعود بعدها مرهقا إلى الحجرة التى يسكنها الآن بعيدا عن الموتى كان يقف فى خلاء الحوش المكشوف الكائنة فيه يفكر .. إذ كان يتخيل أنه ما زال هناك ما يكفى جدا أن يسمع الناس صوته وهو يحادث والده ، أو أن يفتحا الراديو لكى يخاف لصوص المقابر .

وكان كثيرا ما ينسى نفسه وينظر إلى النجوم .. أيام كان يحرس الموتى ما كان يجد لومضاتها مغزى .. كان يراها أشبه بالقناديل التى يشعلها بعض الناس على قبور أحبابهم فى ليالى العيد ، أما الآن فيخيل إليه أنها تخاطب الأحياء .

وأحس بألم فى ذراعه نتيجة التدريب الذى يقوم به كل يوم . فقال فى نفسه : « لا بأس » . أحس بعذوبة الماء البارد فى فم المسافر تحت الشمس . ولعله لم يدر أن فى أعمق أعماقه احتجاجا على طرد أبيه . إنه لم يطلق النار فى المقبرة لكنه فى عمله الجديد سيطلق النار ليلة ما على لص ، وتأوه .. وتصور دم ساقيه وهو ينزف ثم ينبلج النهار فيراه الناس هناك راقدا منهوك القوى ، وربما ميتا على بعد غير بعيد من تلك المزرعة التى سيقوم بحراستها . « وتبسم » وبدل أن يعد الآيات التى كان يقرؤها كل ليلة فى عالم الموتى يعد أظرف الرصاص التى سيحملها معه كل ليلة فى عالم الأحياء .

وبعد عدة ليال شعر أنه خائف كأن شواهد القبور كانت تمنحه طمأنينة نسجت لنفسها بمرور الزمن حول قلبه غلافا بليدا . أما ظلام الحقول فإن له روائح أخرى . والأشباح حيث كان لأرواح شريرة تمر مثل الطيف وقد لا تعود ، واللصوص حيث كان جبناء أخساء يهاجمون من لا يدافع عن نفسه ، ومن رقد بانتظار ما هو أقدر من يد اللصوص .



إذ كان يتخيل أنه ما زال هناك ، يكفي جدا أن
يسمع الناس صوته وهو يحادث والده ، أو أن
يفتحا الراديو ، لكي يخاف لصوص المقابر .

أما لصوص الحقول فلهم أنياب ومخالب . وليس فيها أشباح . وكل ما يتحرك بخفة فهو كائن حي فى أضعف أحواله أرنب برى أو ابن آوى .

لكن « النقلة » كانت شديدة بالنسبة له ، ففى أول ليالى الحراسة شعر أنه مكلف بدفع الأذى والشر والإثم عن كل ناس فى الدنيا . ولكن مع هذه الحالة التى توشك أن تجعله فى صداع مستمر كان يحس بزهو شديد كأنه مثلا نائب عن نور الشمس وسلام النهار . أو كأنه مثلا « دلفين » فى أقيانوس مظلم يركب ظهور الموج بحثا عن غريق يوصله إلى جزيرة أو شاطئ .

ومنحته البندقية « شاربا » فقد صمم على أن يربى شاربه . ومنحته أيضا نظرة عميقة التحديق فما كان من قبل يبالى بأن يرسل نظره إلى بعيد ، فقد كان يحرس تحت قدميه فحسب . وبلغ به الميل إلى تعليل كل شيء إلى حد أنه أعتقد أن والده لو كان حارس مزرعة ما فقد بصره ، والسبب الحقيقى فى فقده نور عينيه أنه حارس مقبرة . كأن نور العين حين لم يجد داعيا لوجوده .. ولى وترك الرجل .

وبدأ اهتمامه بنفسه يخلق الأساطير . فكان هذا سببا فى سيادة الأمن حول المزرعة الصغيرة التى يحرسها .

لم يدر من هذا الذى أشاع عنه أنه كان قبل ذلك حارسا لمزرعة فى قلب الجبل وأنه قتل عميد اللصوص هناك ، ولم يدر من ذا الذى أشاع أنه كان قبل ذلك فى السودان وأنه قتل أحد تماسيح النيل برصاصة . وربما لا يكون غريبا على النفس البشرية أنها تحسن تلقى كل ما يكون فى صالحها كما يرحب الصدر بالنسيم المبكر . ثم يدخل كل هذا فى

نسبجها دون شعور فتولد فى الرجل صفة جديدة تجعله هو شخصا جديدا ربما يقف أمام نفسه وجها لوجه ليتعرف فى نفسه الجديدة على حطام الرجل القديم .

وهذا ما حدث للحارس الجديد ..

نسى صمت الموتى وشواهد القبور ومواسم الاحتفالات بكل هذا ، وشعر بين رحاب المزرعة بأنه مثل إحدى أشجارها الدائمة الخضرة .. أوراقها التى تسقط لا تجعلها أبدا تجف . مثل الحياة .. صرخة المولود بأول تنفس وشهقة الذاهب بآخر تنفس هما دستورها . لكنها دائمة الخضرة ، أوراق جافة تدوسها أقدامنا وأوراق خضراء تظلل رءوسنا !

كان الليل باردا . وكان هناك صوت ريح . وفى الليل شىء يخيفه على غير العادة .

كانت المزرعة مؤلفة من حديقة صغيرة من المانجو وحظيرة كبيرة جدا لتسمين الماشية .. وفى الليل البارد . لم تكن فى موسم المانجو بطبيعة الحال .. وكانت حظيرة الماشية هى الشىء المهم الذى سيرعاه .

لكن صوت الريح وهمس الليل أزعجا الشاب .

ولم يلبث أن سمع داخل الحظيرة ثورة غير معقولة . ولم تنبح الكلاب فأيقن بطبيعة الخفير الذى دربه الزمن أن الكلاب إما مسمومة وإما مخدرة . فلما فتح باب الحظيرة واقترب ألفى الكلاب تحملق فى حلم . أيقن أنها مخدرة .. لكن الحوادث لم تمهله فقد ألفى مجموعة من العجول الشابة فى حالة هياج مخيف . كأنما أصابها جنون . كل منها شرع قرونه وهاجم غيره .

كان أن تقدم .. فإن معنى ذلك الموت .. كانت الأبقار قد قطعت حبالها وشرعت قرونها . وساد الهرج والمرج بين ما يزيد على مائتين من العجول القوية .

وعندما فتح الخفير باب الحظيرة كان هناك عدد يجرى بسرعة وجنون مشرعا قرونه ليقتل أى إنسان . أما الكلاب فقد ظلت راقدة تحلم .. وابتلع الظلام المواشى ووجد الخفير نفسه فى موقف يدعو إلى الحسم .. فجرى وراء الأبقار الشاردة وأطلق النار على رءوسها ثم .. ذبح ما سقط .وأقفل الحظيرة وجلس يسمع إلى الخوار الذى أخذ يهدأ قليلا قليلا .

لم يأت نور الصباح بسرعة .. تأخر الليل كأنه نسى الموعد . وأخيرا جاء وكان عدد الأبقار التى ضربها برصاصه ثم ذبحها ثلاثة أو أكثر . ولكن الموقف عندما جاء أصحاب المزرعة كان غريبا .

قال أحدهم وهو يضحك فى غضب :

ـ أعطيناك البندقية لتحرس المزرعة فقتلت البقر وذبحته .

وقال الثانى :

ـ كان الأولى بك أن تطلق رصاصك على لصوص .

فرد الخفير فى ثقة :

ـ أنتم لا تعلمون أنى لا أعرف الخوف لأننى عشت بين الموتى عدة أعوام .. ولما رأيت الكلاب مخدرة عرفت أن فى الأمر جريمة. كان لا مفر من أحد أمرين أما أن أترك هذه الثيران الهائجة بين الباقى فتتحول الحظيرة إلى مجزرة جزاروها حيوانات . وأما أن أفتح الباب للثيران الهائجة وأتصرف كما فعلت .

قالوا :

- وهل أصاب هذه الثيران جنون مفاجىء ؟

عند ذلك هز الشاب رأسه قائلا لهم :

- عندما يحضر البيطرى سأشرح له ما ضمنته ، وسيرى الأمر بنفسه .

وصدق البيطرى على رأى الخفير ، فقد فاحت رائحة «الشطة» من روث الثيران التى ذبحها قبل أن تخرج بقرونها أحشاء كل ما فى الحظيرة .

نظر بعضهم إليه على أنه أحسن التصرف .. ونظر بعضهم إليه على أنه لا يصلح .. لكنه ما لبث أن وضع نفسه تحت تصرفهم ليقبلوه أو يطردوه وهو يقول فى هدوء كامل :

- لو كان عدوى سافرا لقتلته . لكن ماذا أعمل فى عدو يكمن كالجراثيم .

على كل حال لن أحرس إلا الأحياء ، وسأظل أحرس المزراع .. هنا .. أو هناك .

فرد عليه أكبرهم قائلا :

- بل هنا .. ستجعل منك التجارب رجلا أضخم مما نرى .

كانت هى الكبرى وكان هو أصغر منها .. حفظته جدول الضرب وضربته بالمسطرة على يديه .. ثلاث سنوات فى العمر أو تزيد قليلا بينها وبين شقيقها .. وهما لا ثالث لهما . بنت وولد .. قالت الأم يوم رزقها الله بهما : « نعم إرادة الله ولم يبق ما أشتهى » .

سيطرت عليها ظروف صحية ، ففى كل ولادة كانت تتعرض للموت . فضلا على أنها مديرة مشغل للتطريز فى أحد شوارع العاصمة . وزوجها موظف فى السكة الحديد ... كل منهما يسمع أزيز الآلات بطريقة مخالفة للآخر .

وكأنا أول ما يلتقيان إذا أعفتهما « النوبتشية » وضمهما البيت والليل ، أول ما يلتقيان . يقول الزوج لزوجته ضاحكا :

- كيف حال الماكينات ؟

فترد عليه بوجه شحب متعب مجهود :

- هيه ؟! .. وكيف حال الوابورات ؟!

- حياتنا كلها أزيز .. هأنذا جالس على الكرسى مسترخ بكل أعضائى يا سيدتى ، لكن صفير قطارات « محطة مصر » وصوت « الميكروفون » الذى يعلن عن موعد قطار تأخر أو غير الرصيف - يملأ دماغى!! آه .. لا تكلمينى عن « الماكينات » فهى لا تختلف كثيرا عما عندنا . إلا أن ما عندكم ساكن وما عندنا متحرك . آه .. أريد أن أصنع لقدمى حماما دافئا . (وصمت) من الممكن أن ننادى « سعاد » لتعمل لى ذلك !!

وتتلفت الأم كأنها حائرة تبحث بعينيها الجميلتين المنهوكتين عن شيء مجهول ، ثم لا تلبث أن تنهض لتؤدى لزوجها طلبه . فلا يلبث هذا أن يمسك بيدها ليمنعها عن الحركة .

هي واقفة وهو جالس .. ونظراتها منصبة عليه في ضياء يبدد ظلمة النفس كما ينصب نور « الأباجور » في داخل حجرة مقفلة فيها فتاة وغلام .. هما ابناها .. والفتاة تعمل في جهد شديد ملقية بطرف اهتمامها إلى أخيها الذى يصغرها والذى يغافلها بين وهلة وأخرى ليخرج من جيبه بعض حبات السودانى الناضج الرائحة . لكن ذلك كله لا يهم الفتاة ولا يزحزح أسرارها .

وقال الزوج لزوجته الناظرة إليه وهو يجذبها من ذراعها لتعود إلى مجلسها :

ــ دعى البنية تصنع لى حمام القدم واجلسى . عما قليل سيأوى كل إلى فراشه لأن عملى سيبدأ في الخامسة صباحا . ثم .. آه نسيت ــ آه قولى لى : هل عرفتم من هى التى تسرق قطع الماكينات الهامة الصغيرة ، وفى أى لحظة يتم ذلك ؟!

وقبل أن تجيب الزوجة يستطرد الزوج : لكن .. لماذا أسألك عن هذا ؟ــ بعض ماكينات الكتابة تسرق قطعها عندنا والكل عاجزون عن المعرفة كأنهم هم السارقون .. لا تقومى .. أحس أن قدمى قد ارتاحتا نوعا ما والنوم كفيل بالباقى . (ومد ذراعة خلف ظهرها بحركة آلية وهو يكمل) النوم يا عزيزتى هو حضن أمنا . فلا داعى مطلقا لأن تزعجى الفتاة .

وأطرق وكأنما نسى نفسه . نسى مجهوده وموضوعه وضجيج القطارات فى باب الحديد وقدميه المحتاجتين إلى ماء دافىء ، وحتى ذلك الوجه المنهوك لامرأة حلوة الملامح تجيد ألوان الحديث وتختار دائما ما يقال .. وكانت تتأمل زوجها الذى استطرد وهو ينظر إلى باب حجرة الأبناء .

ـ هما وحدهما .. المسئولية ترعى الفتاة . والفتاة ترعى شقيقها.

ـ هيه .. أنها فى .. الـــ .. ثانوية العامة .. حيث يتقرر مصيرها كإنسانة وزوجة .

ـ وزوجة ؟!

ـ ألا تعرفين هذا ؟

ـ آه .. أنت على حق ، لقد تغير كل شىء بالنسبة للفتاة حتى مقاييس الجمال . لم تعد العين الحوراء ولا البشرة الناصعة فى المقام الأول .. بل هو ما تكسبه المرأة . وهذا عن طريق تعليمها .

وفى هذه اللحظة ارتفع فى حجرة الأولاد ضجيج .. أنصت إليه الأبوان فعرفا أن الفتاة تزجر شقيقها من أجل العمل .. ثم سمعا صوت بكاء مكتوم و لم يلبث الصمت أن خيم . فقال الزوج وابتسامة شاحبة على شفتيه وساقاه ممدودتان إلى الأمام كأنهما شدتا بحبل :

ـ عندنا فى المصلحة .. السكة الحديد .. إدارة اسمها « إدارة الحركة » هل سمعت عنها ؟

ـ قليلا .

ـ إنها بالنسبة إلى الطرق والركاب هى مناط السلامة . فمثلا فى الساعة كذا يتحرك قطار كذا ويلتقى بالقطار الفلانى فى محطة (س)

حيث يكون الركاب المتجهون إلى الشمال بانتظاره بعد النزول فى محطة (ص) من القطار المتجه إلى الشرق . وهكذا .. لا تخلف ولا تصادم . لكن الذى علينا الآن أن نعمله هو نقل هذه الإدارة إلى كل بيت . وهذا يحتاج إلى عناية إلهية لن تمنح لكل الناس .

****

أطرقت الزوجة تفكر . كانت إحدى بنات أربع ولها شقيقان . كانت أمها وأبوها يقسمان أيام الأسبوع . فالنصف خروج والنصف استقبال وضيوف وفناجيل القهوة وربما أطباق اليوسفى والبرتقال فى حجرة الصالون ، والمصمصات والقهقهات والنور مشعل حتى منتصف الليل . ولم تكن هناك فى بيتهم رقابة كافية . ومع ذلك فقد نجح الجميع بطريقة ما . وهى .. هى التى تعلمت التطريز والحياكة فى إحدى المدارس تعمل منذ مدة فى هذا المصنع . لكنها تشعر أنها تجر عربة تحمل كل الناس . ولولا المرح الطبيعى الذى يتصف به زوجها وقلة الأولاد لساد بينهم سلوك البؤس . وجرها من أفكارها قهقهة مفاجئة أتت من زوجها حين قام قاصدا حجرة نومه :

- هل تعرفين لماذا أضحك ؟!

- قل لى .

- إنى أتصور ماذا يحدث لو أن سعاد دخلت إحدى الكليات العظيمة وتخلف أخوها الغبى . ثم ماذا سيكون لون الفرح عندما يتقدم إليها — بصرف النظر عن جمالها - شاب ناجح . والأخ لا يزال يقوم ويسقط .

- ضجيج القطارات أتلف اليوم أعصابك . لكن من ذا الذى يحول بين أحد منا وبين قدره ؟!

قال الزوج متحمسا :

- عندى فكرة .

- نعم . خير .

- ماذا يحدث لو تركت عملك وعملت مديرة للبيت . لا . لا . أريد أن أقول : لو خيروك بين أن تكونى مديرة مصانع كفر الدوار ويفشل ابنك وبين العكس ، فماذا تختارين ؟!

ردت الزوجة ببساطة وهدوء :

- مرتبى قدر مرتبك أو يزيد . فماذا يحدث لو خيرت أنت بين أن تكون مديرا للسكة الحديد ويفشل ابنك وبين العكس ، مع العلم بأننى سأتولى الإنفاق إذا تفرغت أنت لإدارة (القصر) يا حبيبى !!؟

عاد الزوج يضحك . كان يعلم تماما أن هناك ظواهر لا تمتثل لإصدار الأوامر . اختفى الطربوش وظهرت القصبة ثم السوالف . كان الطربوش له قداسة السروال . وكم عذب أطفالا وأبناء وأمهات بزره الحريرى ونسيجه الذى يتورم من العرق . ولم تعد السوالف اليوم وقفا على الشبان فهناك سوالف لعب فيها الشيب وزورتها الصباغة . ثم قال الزوج فى نفسه : « وادارة الحركة » لازمة للنظام لكنها ليست « إدارة وقوف » . ثم نادى بأعلى صوته : سعاد .. يا سعاد ..

وجاء من الداخل صوت ندى عذب حنون :

- حاضر يا بابا .

وجاءت فقال الأب :

ـ أريد لقدمى حماما !! هل عندك وقت ؟!

ـ سآكل هذا السندوتش وأنا أعد الحمام وأستعيد بعض ما يجب حفظه . فأين الوقت الذى ضاع يا بابا ؟ بل هذا وقت رابع هو الذى رأيتك فيه .

قبلها الأب فى جبينها وقال مداعبا :

ـ سأعينك مديرة للحركة فى المنزل . فأمك مشغولة : وأين أخوك ! تعالى يا عزيزتى !؟ تعالى يا عزيزتى ! هل كل شىء بينك وبين أخيك على ما يرام ؟

ـ إنى أحبه .

ـ ربما آلمك ؟!

ـ كل منا يتحمل الآخر ، لكن لى طلبا واحدا هو أن أتعشى معك الليلة .

نظر الأبوان كل إلى الآخر . كانا لا يريدان عشاء أكلا فى المكاتب ما يمكن . وهما شحتاجان إلى النوم . ولكنهما شعرا أن عصفورا حبيسا يريد أن يغرد فى الهواء الطلق ، وأن هذا العصفور غير مسئول عن شىء معين هو القفص والزحام .

***

ونام الأبوان بعد العشاء . وفى الحجرة الأخرى كان هناك « أباجور » ساهر . تحته رأسان لم تستطع هموم المستقبل أن تنيخ على أفكارهما . دهرهما لحظات حاضرة ، مهما حاولنا أن ننفى ذلك . هذا بالنسبة

للابن على الأقل . أما الفتاة فقد كان لها من خيالها معين على تصور المستقبل لذلك فقد كانت حارسة شقيقها ، وأما الأبوان .. فقد كان صفير القطارات يملأ أذن الرجل .

كما أن أزيز الماكينات يملأ أذن المرأة .

حتى دق جرس المنبه .

الزُّبــد .. والحرِّية

هل هذه هى الدنيا ؟!

كان كل منهما يوجه السؤال لصاحبه وعلى الفم ابتسامة وفى العين سعادة . وكان موضع تساؤلهما هو ذلك العش الصغير . الجديد . السكن المكون من حجرتين والمرافق . كان العروسان كل مساء حين يشعر كل ساكن أنه نال استقلاله تماما فلا زيارات ولا أجراس ـ كان كل منهما ينظر في عين صاحبه ويتساءل وعلى الفم ابتسامة وفى العين سعادة .

« هل هذه فى الدنيا ؟! » .

وكان الشاب يجيب فى ضميره بما تعوده من غوص وراء كل غريب : « نعم .. هذه هى الدنيا ولو كانت حجرة واحدة ، والسبب فى ذلك هو أن السعادة تحت شجرة واحدة خير ألف مرة ـ بلا جدال ـ من الشقاء فى حديقة !! ماذا إذن يهمنا من عدد الغرفات والكراسى والأرائك ؟! هذه هى الدنيا » .

أما هى فكانت حتى الآن لا تزال معتبرة من ربات البيوت .

وعندما يعود من عمله يجدها قد طهت له شيئا . واللذيذ فى الأمر أنها كانت تقابله بضحكة كبيرة عندما تفشل فى الطهى . وتقول له وهو جالس معها إلى الطعام :

ـ ألسنا متفقين يا حسنى ؟! هل غششتك ؟!

مطلقا فقد قلت لك أيامها ونحن طلبة إننى معتمدة على يدى أمى فى طعامى .. أليس الخير يا حسنى أن أطبخ (القانون) ما دمت فى كلية الحقوق طالبة. وبعد التخرج .. فـ .. فأظن أن (السبانخ) أسهل من القانون . هل أنا مخطئة ؟!

وتقطع عليه استقلال رأيه في الحكم بضحكة تعتبر (رشوة) لكن الشاب كان يصمت فى سعادة وصبر . ويمضغ الطعام كعادته فى هدوء شديد حتى يبدو أحيانا كأنه نسى اللقمة فى فمه . ثم لا يلبث أن يقول :

- إننى لم اعترض .. لكن بما أنك درست الحقوق فعليك أن تعرفى الحقوق .. تلك التى تتعلق بغيرك . فليس على الأرض كائن ولو كان غير إنسان لا يعرف حقوق ذاته ..

ونظر إليها يسألها الجواب فأومأت برأسها :

- صحيح ..

فاستطرد :

- والوضع (القانونى) لك الآن هو أنك من ربات البيوت ، فعليك أن تعطى ما يطلبه هذا الوضع يا عزيزتى .

قالت بلهجة يشوبها عتاب :

- هل ملكت ثم تأخرت ؟ هذا هو كل ما عندى يا حبيبى!!

- لا ! لا . نسيت شيئا هاما . نسيت أنك تعيشين فى المستقبل . يعنى أنك تقومين بالخدمة وأنت مشغولة ، كأنك قد تسلمت عملا شاقا لم يبق لك ولا لزوجك ولا لأولادك وقتا ما .

كفت الفتاة عن المضغ وأطرقت تصغى . وفجأة تحول الموقف إلى جدية أكثر حين شعرت الفتاة أن تربيتة التدليل قد تكون لطمة مستورة وأن اللطمة قد تكون صرخة حب . وكانت فى حقيقة شخصيتها إنسانة طيبة مسالمة لا تشعر بالسعادة إلا إذا أهدتها إلى غيرها . ومن أجل ذلك أخذت تفكر في سكون : « هل هو غضبان ؟! هل هو غير سعيد أو هو شاعر بالغبن ؟! » .

وبعد أن ظلل السكون لحظة عاد الشاب إلى طبيعته بوجهه الطلق وفمه الباسم يحكى لها حكايات عما صادفه فى نهاره .. وليس بمجرد حكايات لكنها فى الواقع لمس لحقائق الحياة ..

***

ما لبثت الأيام أن مرت ، وكانت الفتاة فى قلق بانتظار هذا اليوم، وها هو ذا قد جاء . تسلمت خطابا ينبئها بمكان عملها ..

وغطت الفرحة على بعد المكان . فقد كان عليها أن تسافر من القاهرة إلى « بنها » كل يوم . قالوا : بنها ؟! ثم ما لبثوا أن قالوا : على كل حال أن اسمها « بنها العسل » فهى أحلى من غيرها : واستطرد الزوج : وربما تكون فى حقيقة الأمر أقرب من مكان فى آخر مصر الجديدة بالنسبة لنا .

عزيزتى .. رب بعيد قريب ورب قريب بعيد .

والفرح نوع من الخمور يعقبه ـ غالبا ـ صداع .

فبعد الأيام الأولى من تسلم العمل بدأت تشكو ، والشكوى أحسن آلة تبحث عن مناجم الهموم ، فبدا للزوجين أن اليقظة الباكرة شيء غير طبيعى . وأن أوامر الرؤساء بشيء من الغلظة شيء غير طبيعى . وأن

جلوس الرجل المسن على كرسى فى الأتوبيس وامرأة واقفة أمر غير طبيعي . وأن نزول المطر فى الشتاء وزوجته خارجة إلى عملها أمر غير طبيعي .

ولم يعودا بعد ذلك يتكلمان عن جودة الطعام ولا (التخصص) فيه .

لكن ذلك لا يعنى أن فرحتهما قد زالت . شيء ما قد اعترض طريق لمعانها لكنها كامنة في قلبيهما .

****

أما اليوم الذى صرفت فيه أول مرتب من عملها فلم يكن عندها يوما . كان عدة تواريخ ميلاد بالنسبة لها وكل تاريخ عيد . ولم تطق البقاء فى « بنها » فاستأذنت بحجة أن شيئا مفاجئا نزل بقلبها ولابد لها أن تنصرف اليوم .

ولما استوضحوها الأمر أقسمت أنها صادقة .

وعاد زوجها من العمل فوجدها فى المنزل . دهش بل خاف . لكنها قابلته بفرحة ولدت من جديد . فرحة أحلام المرأة التى حققتها الأيام . وقدمت له مرتبها . جلس إلى جوارها ولاصقته وأخذا يعدان وكأنهما لم يريا نقودا . كانا سعيدين للغاية . وبعد ذلك قالت له فى دعابة :

ـ احذر أن تلومنى بعد اليوم . فحلاوة المطبخ تأتى بعد حلاوة المشاركة فى العمل . والمرأة على كل حال يجب ألا تنظروا إليها على أنها (فاتحة شهية) .. حسنى .. أنت اليوم رزين أكثر من اللزوم .

كان مبتسما لا يرد . وكانت الأعين تحملق في شوق . كل منهما يفحص وجه الآخر كأنما بعد غياب طويل .

وفجأة .. هتف الشاب ؟

ـ ما هذا ؟! من هذا ؟!.

كان جرس الباب يدق في خشونة . اليد التي تدقه تدل على أن من بالباب لم يتعود كثيرا على دق الجرس .

وقام الشاب وفتح .

كان بالباب فتاة سمراء ريفية جميلة . ونادى الزوج على زوجته فقد عرف الحكاية دون كلام . وجاءت الزوجة :

رأت فتاة حلوة الملامح والصحة وإن بدا عليها الإجهاد .تلبس ملابس سوداء وفوق رأسها إحدى (المشنات) ورائحة الزبد تفوح حولها تخبر عن نفسها .

وضحكت ربة البيت وهمست في أذن زوجها :

ـ اطلع .. لابد أنك الذى قلت لها كي تجيء .. لأن زوجتك قد (قبضت) !! أنت تعرف الطيب والردئ من (الزبد) بحكم نشأتك الريفية ، فعليك ذلك . أما أنا فلا علم لى .

وتأكد الشاب أن الزبد جيد لكنه أخذ يجاذب الفتاة أطراف الحديث . عرف بلدها . ولكي يجعلها شديدة الأنس ـ كطبع بعض الناس ـ ذكر لها معالم قريتها . تلك التي يقع في مدخلها وابور طحين يملكه فلاح ، وإلى تجاهه حديقة نخيل من بلح الزغلول .

كان ذلك مصادفه بلا شك . لكن المصادفات مقررة .تقع دون استئذان .

ومن طبع القروى أن يسترضى المدنى لأنه في قرارة نفسه يعتقد أنه الأقوى والأذكى والأجمل والأغنى .

وكان ذلك سببا في أن الفتاة الوديعة السمراء البسيطة بدأت تزن الزبد وتتكلم حين سألها حسنى عن مهنة زوجها ، فضحكت فى لطف قائلة :

ـ لا يمكن إلا أن يكون فلاحا .

سألتها الزوجة فى دعابة أيضا :

ـ هل تزوجتما على حب ؟!

ففتحت الفتاة فيها عينين رائعتين ثم أجابت وهى مطرقة نحو القوالب الشهية البيضاء :

ـ فى القرية كما فى المدينة ناس يتنهدون ؟!

وغمغمت بضحكة .

***

وبعد أن شربت كوبا من الماء البارد استعذبته كثيرا قالت مجيبة عن سؤال !

ـ « تزوجته منذ عشر سنوات . كنت صغيرة فى حدود السابعة عشرة ، هكذا قالوا لى . وليس هناك سنبلة من القمح إلا زرعناها معا وحصدناها معا . والمواشى مسئولة منى وحدى . وكأنى أمها !! وليس فى حقلنا بذرة لم نضعها شركة . العمل بيننا بالنصف من زمان . لكن للرجل حق الإمارة . هكذا قالوا لنا » .

ظلل صمت على المكان حتى جمعت ميزانها وأخذت النقود وهبطت السلم . ولما دخل جمعت ميزانها وأخذت نظر بعضهما إلى بعض كأنما رأيا أن من الواجب أن يراجعا قصة الرجل والمرأة . بدت لهما وكأنها قضية جديدة . مع أنها على ما يظن بعض الناس بدت أولى « جلساتها » بين آدم وحواء وظلت تؤجل وتستأنف حتى اليوم .

قال الزوج بعد أن جلسا إلى مائدة الغداء :

- عزيزتي .. عدت اليوم من عملك مبكرة واعتذرت هناك لهم بأن شيئا مفاجئا نزل بالقلب . عزيزتي الأرز لا يعجبني اليوم لكن ليس هذا هو المهم .. المهم أنك اشتريت الزبد للمنزل من مرتبك . هذا جميل . (وضحك عاليا) أعطيناك الحرية وأخذنا (زبدا) . أينا يا ترى أخذ أكثر ؟! نحن الرجال ولا شك .

كانت مبهورة بما قال فقد بدا الكلام جليا ، لكنها كانت سعيدة . واستطرد الزوج :

- ومع ذلك فإن المرأة الريفية قد نالت كل ما طالبتن به بلا مطالبة .. الم تسمعيها وهي تحكي عن المشاركة ؟! وعن تحمل كل مسئولية ولها أيضا فيها النصيب الأعظم .

وبعد صمت وبسمات متلاصقة كبريق شيء غامض :

- لا تقولي إن « بنها » بعيدة ، واحذري أن تشتكي من آلام الحمل في المستقبل ، فقد كانت القروية تحمل (جنينا) وحمولة من الزبدة .

وضعت الزوجة الملعقة وقالت في شبه مناجاة :

- حقيقة يا حسني . إن الشكوى أحسن آلة تبحث عن مناجم الهموم . فلنعش حياتنا .



في القرية كما في المدينة ناس يتنهدون !!

مزمَـــار الرَّاعــى

(جولييت فوق سطح القمر)

فى قارة السحر والكنوز والغمـوض .. أفريقيـا .. تقـف عنـد نهايـة الأفق بقايا غابة . قطع الأوربيون أكثرها . ثم أتـاحت الأمطـار الكثـيرة والجو الإستوائى للأعشاب هنـاك أن تنبـت بعـد أن قطعـت الأشـجار . وبذلك ولد مرج جديد .

كانت أصوات المناشير تعمل على بعـد وتسـاقط الأشـجار الضخمـة يحدث هزات يخيل إليك معها أن الأرض لفظت شيئا . ومع هذه الحركة التى ألفها المواطنون كانت ترتفع أصوات العمال من بعـد وهـم ينـادون بعضهم بعضا كأنها تراتيل للتغير الذى أحدثته الآلة فى هذه الأماكن .

أما منطقة العمل نفسها فكانت مليئة بالأكواخ المصنوعة من الخشب المشقوق ، وحملت السـقوف وقـودا مـن الأغصـان الجافـة . تلـك التـى يرتفع منها دخان الطبخ والغسل كل يوم باستمرار .

أما المرج الجديد فهو على سعته لم يكـن كبـيرا بالنسبة لأبعـاد هـذه القارة ، وكان الرعاة يسرحون إليـه كـل يـوم . وقبـل غـروب الشـمس تنحسر عنه ببطء غير منتظم قطعان الماشية تحدوها نداءات كأنها نصـف همهمة . لكن .. قلما يخلو هـذا الجـو المشـحون بالمتاعب والحكم بما سـيكون فـى سـهرة الليلـة حـول الدفـوف ـــ قلمـا يخلـو مـن غناء .

وكلمة « السحر » يمكن إطلاقها على أشياء كثيرة .. هناك .. تطلق كلمة « السحر » على القبيح جدا مثل وجوه عجائز شكسبير . وتطلـق على الجميل جدا مثل نهوض البدر على خـط الأفـق الشـرقى فـى نهايـة

الشهر . وتطلق على القوام الأفعوانى الأسود وهو يتلوى من غناء الليل وطرب المجموعة . وتطلق على الحية حين يخدرها أحد الرقاة فتستنيم له كما تستنيم هرة فى مخدع طفلة . وعلى شجاعة الرجال حين يأتون بما يشبه المعجزة فى العمل .. والحرب .

من أجل ذلك فإن كلمة « سحر » يهمس دائما بها الأوربيون والأوربيات فى هذه القارة ، وخصوصا النساء ، كما يتهامسون باسم عطر باريسى جديد وصل إليهن للمرة الأولى ، وكانت كلمة السحر تلف سيرة شاب أفريقى يقيم فى هذه المراعى .. ولم يكن إلا راعيا .. وقد نسى جميع الناس اسمه من أوربيين ووطنيين لأن اسم الشهرة غطى على اسمه الذى أطلق عليه ولم يعد أحد يعرف عنه إلا أن اسمه « النمر » .

كان الأوربيون والأوربيات يحسون أول ما تقع عليه عيونهم بما يحس به شخص ما عندما تقع عينه فجأة وبلا توقع على جبل أو بحر أو أى شىء من هذه التى بنتها يد الله ولن تهدمها إلا يد الله .

لا يعيق الظلام عينيه من أن يرى ما يهم .. وإذا عمل عرق لأنه يستنفد كل طاقاته فى العمل . وإذا رقص عرق لأنه يستفد كل طاقاته فى الرقص . وإذا أحب .. أكاد أقول « عرق قلبه » لأنه يستنفد كل طاقاته فى الحب . وإذا نازل خصما فإن موقفه لا يتغير عن بقية المواقف .

وكان واسع الخطوات ولا تسمع خطاه . يسمح الأفق بنظره يمينا ويسارا ولقوامه الطويل يبدو للعين وكأنه يختال فى مشيته ، ولذلك أطلقوا عليه اسم « النمر » .

له ثلاثة أشياء غالية عليه : قطيعه الذى يرعاه . وبندقيته التى يصيد بها . وزمارة الراعى التى يعزف عليها وهو متكئ أو عائد أدراجه أو سائر فى المروج ..

وهو بحكم تقاليد هذه المناطق .. قد تزوج مبكرا ..

عرف الحب .. وعن طريق الحب أدرك معنى رعاية قطيعه .. وعن طريق الحب سمعت أذنه همسات كلمة السحر حين ينفخ فى مزماره .. فوصل إليه همس الكلمة من أفواه الأفريقيين والأوربيين وكأنه همس الحرير حين يلامس الحرير .

وعن طريق الحب عرف أن المصاعب دنقوس وأعواد شذية العطر تحترق فى معابده من عهد « ديانا » حتى اليوم . وأن الحب قد يكتب رسالة بالدموع أو الندى ، أو بقطرات من الدم .

وقد حدث لهذا الشاب أن فعل . كتب رسالة حب ببعض قطرات من الدم . يوم كان يرعى فى المرج ويعزف والوقت قبيل الغروب .. وكأنما اللحن باب انفتح عن فتاة .. يعرفها .. لم يكن قد تزوجها بعد .. كان حين يرقص على الطبول ويتلوى كانت هى ترقص فى داخله .. وفى داخلها كان هو يرقص . لكأنما البشر نهر وحياتنا كلها فى منبعه .. فإذا انسد أو فاض رأينا التماح حنادقا كثيرا .



يوم كان يرعى فى المرج ويعزف والوقت قبيل الغروب

وبعد القبلة الأولى التى لمست الشفة مكـان المزمـار ، اختفـت القبلـة والغنوة وبدأ الحب يكتب رسائلة ببعض قطرات مـن الـدم . حين بـدأ الغريم الذى كان متربصا لهما . وانتصر « النمر » بعد جهاد .

أما حبه لقطيعـه فمغـزاه إثـراء الحيـاة .. أرواح تعرفـه وتنفعـه وتنفـع الناس . وكأنها من صنع يديه . كأنما كانت فى الأصل تماثيل صغيرة من الصلصال شكلها وأحصاها عددا ثم نفخ الروح فى كل مكان منها . وفـى عيونها يرى المودة ويفزع إليها إن أخافها فى المرج شـىء وإن اضطجـع وغنى بمزماره شعر وكأنه يغنى من أجلها .

الغابة والمرج والناس والحيوان .. وحتى الوحـوش ـ يخيـل إليـه أنهـا أجزاء يكمل بعضها بعضا . كلها جسم أفريقى له زيه وقوامـه وسـحنته وتكوينه . لذلك كانت الأكواخ المصنوعة من الخشب المشقوق والمقامة بأمر الأوربيين والتى ينبعث منها الدخان وكأنها تحترق ـ هذه الكواخ لم تكن تروقه .

وفى أيام الآحاد أيام العطلة الرسميـة للعمـل فـى المناشـر كـان بعـض إخوانه يذهبون إليه فى المرج . وكانوا يتحدثون .

ـ اللّه قد زرع هذه الغابات عندنا .

ـ هو كذلك .

ـ زرعها فى أرضنا فمن الغريب أليس كذلك أن تكون لنا وحوشـها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله !!.

ـ يقولون إنهم ينفعون وينتفعون ، أما نحن الأفريقيين .. آه ..

ـ حكوا أن شابا أصابه مرض غامض حار رجال القبـائل كلهـم فـى علاجه . ولما يئس سافر إلى مكان نحو الجنوب حيث تقوم شـهرة رجـل

حكوا أنه يأتى بما يشبه المعجزات . وبعد سفر وعذاب وتعرض للأهوال والمخاطر ذهب المريض مع من يرافقه إلى هناك فوجد ناسا كثيرين بالانتظار ، فتفاءل قائلا : هذا دليل الثقة . فلما دخل على المعالج رأى الوافد شابا يافعا معلولا . فنظر فى عينيه طويلا وفتح كفيه وفرك أصابع يديه وقال له : علاجك فى عشب يمكن الحصول عليه وسأدلك على مكانه فى أعلى جبل . وستعود إليك صحتك ويمكن بها أن تصرع ثورا . لكن لى شرط هو أن تقضى بقية حياتك كلها فى خدمتى أسخرك كيف أشاء ، فأنا سأهبك الصحة فلى عليك ما أريد . فكر الشاب مطرقا مليا وطال أطراقه حتى ظن الرجل أنه نام ونسى . فلما نبهه رد عليه باشارة واحدة : « لا » فاستعجب الرجل مستفهما .

فقال الشاب :

ـ تقدم لى جرعة من الماء لتنقذنى من الموت ظمأ ثم تشربنى أنا ؟! لا داعى للعذاب .. ممكن أن أعود الأميال التى قطعتها إليك .

ـ مخطىء ؟!.

ـ مصيب ؟!.

لا تكون الحياة ثمن العلاج مطلقا ولا يكون الاستعباد ثمن « التنوير » وإلا أعطينا ذهبا وأخذنا .. رصاصا .

و لم يلبث الجميع أن أفاقوا على ضجة . كانت فى مكان قريب. عندئذ نهضوا ووقف « النمر » على مرتفع من الأرض . ثم ما لبث أن صاح :

ـ لقد سمعت طلقة رصاصة هناك على مقربة من أول الغابة .

وعندما وصلوا إلى هناك وجدوا وطنيا مقتولا . وكان وحيدا لم يصل إلى مكانه أحد بعد . وتبين أن عراكا قام بينه وبين القاتل ، وأن

الوطنى تفوق عليه ، وأخيرا أطلق الأوربى عليه النار . وكانت كف الوطنى وهو رجل ناهز الخمسين .. كفه القوية مطبقة على شىء .. فلما فتحوها وجدوها كانت متشبثة بما يمكن ألا يرى . ببضع شعرات شقراء خلعت من رأس خصمه أثناء المعركة .

وحمله « النمر » على كتفه وسار به نحو كوخه الذى كان ـ لسوء الحظ أو حسن الحظ ـ فى نهاية مجموعة الأكواخ . وبما أن اليوم يوم عطلة فقد كان أكبر عدد من الناس موجودا فى هذه الأماكن .

وببساطة سرت فى النفوس دون حديث أو خطابة تلك الكلمات التى كانوا يرددونها قبل سماع طلقه الرصاصة :

« اللّه قد زرع هذه الغابات عندنا . فمن الغريب أن تكون لنا وحوشها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله !! » .

وفى المساء أقفرت الساحة فلم يكن هناك رقص ولا غناء . لكن فى خضم الليل سمع الوطنيون والأوربيون مزمار الراعى فى المروج . سمعوه يقول شيئا لم يسبق له أن قاله من قبل .

لم تثر هذه النغمة فى الجسد الأفريقى ميلا إلى الرقص ولا الترنح، بل أثارت فيه ميلا إلى سماع ما كانوا يرددونه معا . من قصة ذلك الشاب الذى أراد المعالج أن يحتكر حياته بعد أن يدله على مكان على جبل .

... ثم قصة ما كانوا يقولون :

« اللّه زرع هذه الغابات عندنا . فمن الغريب أن تكون لنا وحوشها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله » .

وذهب بعض الوطنيين ليروا أين يجلس الراعى بمزماره . فراوه على المرتفع الذى وقف عليه ساعة الحادث وكانت زوجته إلى جواره وكأنما

حلقت فوق رأسها ذكرى أو قصة حب أراد الحب نفسه أن يخط رسائله فيها .. لا بالندى ولا بالدموع ولكن ببعض قطرات من الدم . وعندئذ سألوه :

ـ ماذا يقول مزمارك ؟! إنك تقول شيئا جديدا .

فقال :

ـ هو يردد ما كان .. وما يجب أن يكون .

أحس الوطنيون منذ ذلك اليوم بأنهم جسم واحد قطعت إحدى الآلات أصبعا منه ، وأحس الأوربيون أنهم ـ حقيقة ـ وضعوا أنفسهم مكان من طالب بحياة المريض بعد علاجه ، وأن الاستعباد لا يجوز فى قوانين الحياة أن يكون ثمنا عادلا لما يسمونه التنوير .

ولم يعد الراعى يعزف إلا اللحن « الداعى » وهجر اللحن « الحالم » وكأنما تغيرت فجأة مهمة المزمار والبندقية .

وحتى القطيع نفسه . كان حين يسمع اللحن الجديد يجذب الأعشاب بعنف لينتهى من الرعى وكأنه إنسان قد نفد صبره .

على أن الساحة التى كانوا يرقصون فيها إذا هبط الظلام ظلت مهجورة ، فقد كان الجميع مشغولين بقضية غاية فى البساطة .. تلك هى قضية الغابة :

« اللّه قد زرعها فى أرضهم .. فماذا للغريب عندهم » ؟!.

ضيف .. نصف الليل

بعد عدة ليال من زواجى طاردنى كابوس لئيم . لكن ... مالى أقول لئيما ؟؟!.. ذلك خطأ .. فإن الكابوس إذا لم يكن لئيما فقد شخصيته فيصبح عندئذ شيئا غريبا كما نقول مثلا « ملاك غير رحيم » .

كنا نتناول عشاءنا مرتين أنا وعروسى .. ونزلنا أيامها فى فندق متوسط من فنادق الجنوب الدافئة الهنية .

وكنا نتعشى مع آخر النزلاء ، وبعد قضاء سهرة فى أى مكان من المدينة أعود جائعا .. فأتعشى ثانية فى الحجرة .. ولم تكن عروسى لتشاركنى العشاء ، فقد كانت تحب النحافة وتدافع عنها بكل ما تملك النحيفات من قوة ، أما أنا فقد أضحك من هذا .. كنت نحيفا وأكره النحافة حتى فى النساء .. ولعل السبب أن البيت الذى نشأت فيه كان كل أفراده مفرطين فى النحافة ..

وأنام بعد الثرثرة الحلوة التى لا حدود لحلاوتها بينى وبين عروسى . لكن .. لا يلبث الموقف أن يكون فظا ، فأستيقظ فى أخريات الليل على الكابوس وهو يعبث بى : وأفتح عينى وأنير « الأباجور » الصغير فأرى العروس فى أحلام ، لا تزال عليها لمسات واضحة للشباب والطمأنينة ، فأوقظها بأى حركة تبدو غير مقصودة لكى تشاركنى أرقى .. وعندئذ تقول بصوت شرخه النوم ثم تركه وكأنه مخمور .

- حبيبى .. ما الذى أيقظك ؟!

وقبل أن تسمع إجابتى كاملة تكون قد عادت إلى النوم فى اللحظة التى أكون فيها مشغولا بتلفيق أى كلام ، إذ رأيت أنه من غير المناسب أن أقول للعروس : إن الكابوس يطاردنى مذ أتينا معا إلى هنا .

لكننى فى الليلة التالية اتخذت قرارا ، فقد غير الكابوس ثيابه .

أخذ يظهر لى على هيئة عربة مليئة بعساكر الشرطة تجرى ورائى فى شوارع مدينة مجهولة لى .. فإذا ما حاولت الهرب ألفيت نفسى فى حارة مسدودة والعربة خلفى . والغريب أن لا أحد ينزل لى منها ، ولا يريدون إمساكى باليد ، ولا يتكلمون ، ولا يصوبون نحوى سلاحا . حتى فهمت أن غرضهم الحقيقى هو أن أصعد معهم إلى العربة فى صمت .

وكنت أقول وأنا نائم : « هذا كابوس » وأحاول أن أوقظ بنفسى ، وأن أتصالح معه فى الليالى التالية .

لكن المطاردة أستمرت .. وعندما استيقظت من النوم كانت خيوط النهار قد تسللت وأضاءت الحجرة ، ولما فركت عينى كدت أضحك ، فقد كانت العربة التى طاردتنى قطعة كبيرة من أثاث الحجرة عليها بضعة تماثيل رخيصة لكنها غريبة .

وعند دخول الليل فى الأيام التالية أحسست أن فى باطنى خوفا دفينا من هذه الأحلام . فقررت إلغاء العشاء الثانى .. وكم ضحكت منى عروسى وقرقرت وهى تقول لى مازحة :

- حرام ... وتنام بلاعشاء .. وتقول فى المستقبل إن أول شهر تزوجت فيه اضطررت أن تنام بلا عشاء ؟!

لكننى نمت فعلا بلا عشاء ، ومن المرعب أن يكون النوم انتظارا .. ذلك معقول جدا فى اليقظة . أما الانتظار فى النوم فهو عذاب وقسوة .

كان عقلى الباطن مشغولا باللعبة الثقيلة .. مشغولا بما سيعمله معى هذا الكابوس .. ولو أننى كنت عظيم الأمل فى أنه لن يزورنى بعد حذف العشاء الثانى !!.

غير أن الذى حدث كان مثارا لضحكى وخوفى . كنت أشبه براكب فى الزحام عرف أن بجواره نشالا فمكنه من أن يسرقه وذلك كى يمسكه متلبسا .. فسرق .. وسخر من نفسه .

لم تطاردنى العربة .. ولم يظهر رجال الشرطة الصامتون . ولم أجر فى المدينة المجهولة واهرب إلى حارات مسدودة ، لكن الذى حدث بعد حذف العشاء الثانى هو أننى رأيت نفسى جالسا فى الشباك فى خزانة المؤسسة الكبرى التى أعمل بها . ووقف أمام شباك الصرف صف طويل من العمال لا يرى له آخر ، وعلى كل أن يقدم بطاقته الشخصية أو العائلية لكى أصرف له أجره الإضافى . وكلهم فى قمصان وبنطلونات .. كلهم ذوو وجوه مكدودة وذقون لم تحلق من يومين على الأقل .. كلهم ذوو عيون حادة براقة نظراتها تثقب الزجاج بينى وبينهم .. وجوههم جميعا تحمل لى عداء أشبه « بجر الشكل » .

وكلما قدم لى واحد بطاقته ورأيت اسمه ومهنته دفعتها على الرخام إليه ثانيا رافضا الصرف له . فينظر متوعدا فى صمت مكين . وينصرف ويتقدم الذى يليه فى الصف ولا يتغير الموقف . حتى صرخت : « ما



« حبيبى .. ما الذى أيقظك . »

.. ما هذا ؟ » . فقد كانت جميع البطاقات تحمل مهنة « بوليس سرى » فقمت من فراشى أتصبب عرقا .

أشعلت « الأباجور » فإذا النائمة جنبى راقدة فى سلام . سألت نفسى وأنا ألتقط أنفاسى : « نحن على مخدة واحدة ويختلف الحلم ؟! صدق من قال هذا » .

وقمت أنظر من خلال النافذة المقفلة على الشارع الساكن . أنظر إلى لا شىء . وفى الحقيقة كنت أحاول أن أجد مخرجا لهذا الشىء المفزع . وأيقنت حينئذ أنه من الجائز أن يكون هناك تزوير ما فى المؤسسة وأن رجلى ستجر بطريقة مجهولة نحو هوة مجهولة .

لكنى ما لبثت أن أحسست بحاجة إلى النوم فاستلقيت إلى جوار عروسى وأمسكت بإحدى ذوائب شعرها وأنا بجوارها كأننى غريق يمسك أى شىء صادفة .

فى الليلة التالية ضحكت عروسى أكثر مما يجب لأنها أخذت حينما فوجئت بقرار خطير وهو أننى حذفت العشاء كله . الأول والثانى !!

وشاركتها الضحك فقد بدت لى أشبه بينبوع يتدفق ، رشاشه خمر ، وطعمه سكر .

وقضينا ليلة هنية استسلمت آخرها إلى نوم عميق بلا حدود . وكانت فرحتى فى الصباح عظيمة حين نهضت فتذكرت أن الكابوس قد تخلف . فرحت . دخلت الحمام وأخذت فى الغناء . وأخذت عروسى توقع لى لحنا بالنقر على باب الحمام .

كان يوما جميلا حقا . كان خلوا من الانتظار . لماذا أحسست أننى مطلق السراح ؟! أهكذا نحن ضعفاء ؟ حلم يلح علينا عدة ليال فيعكر صفو دنيانا ؟!.. ما بالنا إذن بإلحاح الحقائق .

غير أنى قلت لنفسى: هل هناك وهم مطلق ؟! وأجبت : لا بد أن لكل شيء سببا..ثم.. عدت فنسيت . واندمجت فى أفراحى حتى هذه الليلة .

فى هذه الليلة تعشيت مرة واحدة . لكننى كنت جائعا ، وكان الجو مائلا للبرودة . وكانت عروسى فى فرحة من سيعود إلى الوطن بعد غربة ، إذ أنه لم يبق لنا فى الجنوب سوى ثلاث ليال .

أويت إلى فراشى غير منتظر زيارة الصديق الثقيل . لكننى وجدت نفسى قد حوصرت بشكل أغرب ، فقد اصبحت هذه المرة أنا نفسى « رجل البوليس السرى » ، أحمل بطاقة ظهر أنها مزورة. وأمسكنى رجل البوليس سرى حقيقى !!.

ولم تكن الشمس قد ارتفعت على الأفق .وكان الصباح دافئا عذبا. فلبست وقلت لزوجتى النائمة وأنا أهم بالخروج .لا تقلقي..سأعود حالا.

فتحت عينيها وأغمضتهما ثانيا واستمرت فى النوم .

أما أنا فقد ذهبت إلى النيل . كان الجبل فى الشاطىء المقابل أشهب شامخا جميل المنظر . فجلست تجاهه على صخرة كبيرة وحاولت أن أفكر فى مغزى هذا ، فقد كان يخامرنى خوف من شيء واحد لا غير هو أن تجر رجلى فى اختلاس لا علاقة حقيقية لى به . وعندئذ سيقولون : « الآن فهمنا من أين تزوج وكيف قضى شهر العسل . أيوه يا عم » !!

جلست أستعرض حياتى ، ففوجئت بشيء كنت نسيته تماما . ولم يكن هذا الكابوس مخلوقا من عدم ولا عائشا فى فراغ بل كان ناقوسا

خافت الصوت يدق فى باطنى . إنه فيلسوف ومؤرخ ومؤلف واحد قوى الوعظ والإرشاد !

تذكرت هذا الصباح أننى دخلت قسم الشرطة وأنا طفل فى الخامسة من عمرى .. نعم .. ولم يكن السبب أننى ارتكبت جريمة أو ضللت الطريق . بل كان السبب شيئا آخر .

لكن المهم هو أننى ارتعت وارتعدت . كنت مثل الريشة الهائمة. رأيت ضابطا وشرطيا وناسا يقدمون أوراقا وناسا فى يدهم حديد . ونظرات قاسية ، أما البسمات فكانت نادرة لكنها حقا ساحرة .

كنت يومها مع أمى . وفى إحدى الحجرات تلقفنى رجل له شارب كثيف وله حواجب كثيفة . وفى صدره شعر كثيف .. تلقفنى وقبلنى قبلة كثيفة . قالوا : إنه أبى .. وأن الطريق الوحيد لرؤيتى له ورؤيته لى هو قسم الشرطة لخلاف بين الزوجين !!

تنهدت على النيل ونظرت إلى الجبل المقابل وصرخت : « آآه » .

ومن المؤكد أن أحدا لم يسمعنى فقد كان المكان خاليا .. لكننى عرفت سر المطاردة . إن لى الآن زوجة .. وهذا الكابوس الكريه جاء يذكرنى بشىء هام .. هام جدا .. لأنه متعلق بحياة ناس مهمين . أنا .. وهى .. ومن سننجب .

قلت فى نفسى : « كابوس » . مؤرخ . ومؤلف . وفيلسوف . وواعظ أيضا .. وقلت بصوت عال : لن أراه ثانيا .. لن أراه . وقد حدث .

بعْـد الصَّبـــاح الباكر

لما صدر أمر نقله إلى القاهرة واجتمع شمله هو وزوجته وأولاده بـات طول الليل يسخر من متاعب السنوات التى مرت بـه بطيبـة قلـب رجـل يرى أن المتاعب تتحـول إلى شـىء مضحـك بعـد أن تمـر بالإنسـان . فبعـد العشاء فوجئت زوجته بأنه قام وأحضر خريطـة وورقـة وقلمـا ثـم أخـذ يحسب بصوت عال كأنه صوت رجل مغلوب ـ عدد الكيلومترات التى قطعها إلى مدرسته فى الزقازيق خلال السـنوات الست وذلـك بعـد أن راجع الخريطة ـ فوجدها تزيد علـى مـائتى ألـف كيلومـتر ، وكـان مـن الممكن أن توصله إلى أقاصى الدنيا . ولو ارتفـع هـذا القـدر إلى الفضـاء لخرج نهائيا عن نطاق جاذبيـة الأرض وأصبح فـى حالـة فقـدان الـوزن واستراح من البدانه . ولو غـاص تحـت الأرض هـذه المسـافة لوصـل إلى سعير يقترب من سعير قرص الشمس ذاتـه . كـان يضحـك وهـو يقـول كل ذلك لأنه يقوله بحكم مهنته كمـدرس للمـواد الاجتماعيـة. ولذلـك حمد الله أنه كان يتحرك فى نطاق محدود ذهابا وإيابـا . وإلا لكـان بينـه وبين زوجته اليوم هذه الأبعاد المخيفة ، وقام فأحضر صورة مـن النشـرة التى تحمل اسمه واسم المدرسة التى نقل إليها وأخذ يقبلها ويضعهـا علـى جبينه كأنها صفحات من كتاب مقدس ثم يعيد قراءتها بين فـترة وفـترة ويعلق بصوته المغلوب على كل الاسماء التى يعرفها من الرجـال والنسـاء المنقولين .

ولم ينم السيد « معوض » طول الليل ، فقـد كـان موعـد ذهابـه إلى المدرسة الجديدة هو .. غدا .. فى الصباح .. (غير الباكر) ..

لكنه بحكم العادة استيقظ فى الخامسة صباحا . فى الساعة التى كان ينهض فيها قبل صدور نشرة النقل . وطاب له أن يحس بالوقت وأن يداعب مروره . كما يطيب لمن ملئ جيبه بالمال أن يجرب حماقة الإسراف .لذلك أخذ يتقلب فى الفراش وينظر إلى الساعة كل ربع ساعة . ويتصور مشاهد لا تحصى من رحلته التى انقطعت ويبتسم وينتهد .

وبعد أن تناول الإفطار ببال هادئ ودخن لفافة فى الحمام لبس أفخر بدله وإن كان محشورا فيها وذهب إلى المدرسة سعيا على الأقدام وإن كانت المسافة بينها وبين بيته لا تقل عن خمسة كيلومترات .

كان عمله هذا أشبه بالتقرب إلى اللّه بالحمد والشكر . فهو لم يعرف المشى على الأقدام ذهابا إلى العمل فى شوارع القاهرة منذ عشر سنوات . ولذلك ملأته البهجة وشعر باستضعاف شديد لهؤلاء المنتظرين على محطات المواصلات . فأى مسافة داخل القاهرة - فى نظره - يمكن قطعها جريا لا مشيا .

وراعه منظر حديقة مدرسة البنات الإعدادية التى نقل إليها كأنه لم ير زرعا طوال حياته . فاحت منها رائحة ياسمين وأسكرته الرائحة كأنه لم يشمها من قبل ألف مرة فى مدرسة الزقازيق . وخيل إليه وهو يتهادى فى الحوش بعوده القصير وجسمه السمين فى طريقه إلى حجرة (الناظرة) ورائحة الياسمين تملأ حواسه - أنه فى حلم . لقد حذفت المشقة من حياته فأصبح ملمس كل شىء ناعما وإن لم يكن كذلك .

واستقبلته عينا الناظرة فى فتور . ماذا كان الأستاذ معوض ينتظر ؟! المسألة فى الواقع مسألة خطأ فى التقدير لأنه كان منتظرا أن تفعل رائحة الياسمين الوافدة من الحوش — فى نفس الناظرة ما قد فعلته بنفسه . غير أنه نسى أنها ليست منقولة من الزقاريق وأن المشقة التى جعلته يحس بهذه اللذات ليست موجودة فى حياتها . ولذلك عندما أحس فتورها أخذ يحييها هو بين وهلة ووهلة كأنها هى الوافدة عليه فنظرت إليه وتبسمت ورأت فى سحنته الطيبة وظروفه الجديدة دوافع تدعو إلى التماس العذر . ثم ما لبثت أن قالت له بعد أن نظرت فى كشف كبير قدمه إليها السكرتير :

— أستاذ معوض ..

انتفض كمن يستشعر خطرا حتى قام واقفا كتلميذ ألقى عليه سؤال . فأومأت إليه بالجلوس فجلس واستطردت :

— أستاذ معوض .. أنت .. مدرس ..

وأخذت تنقر بالقلم على الأوراق فى الوقت الذى أخذ الرجل يقول فيه لنفسه : إذا لم أكن مدرسا فماذا أكون ؟ ربما وكيل نيابة. وظل صامتا حتى أكملت حديثها :

- مدرس .. زائد عن الحاجة .

— غريب .. (ومط الحروف مطا غريبا بصوته المقهور) .

فحملقت فيه بعينين مكحولتين وكأنها تؤنبه لكنه قال فى نفسه : « هذه خير من عيون كمسارى القطار ومفتشه ومن عين الناظر القديم الذى تشبه عيون المخبرين . الحمد للّه . أدمها نعمة يا رب .. » وقالت الناظرة :

ـ مؤكد أنك تعرف معنى كلمة زائد .. لأنك فيما يبدو مدرس عجوز ..

وجعلتها دعابة وضحكت .. وضحك معوض فى استرضاء وارتباك . على حين استطردت الناظرة .

ـ لكننى على كل حال سأدبر الأمر مع (المنطقة) ، وعليك الآن أن تذهب إلى ثالثة أول ..

وأخذ يصعد السلم حتى وصل إلى الدور الثالث ، وأخذ يبحث بين اللافتات وهو يلهث جدا . عن ثالثة أول ، لكن رائحة الياسمين كانت تملأ حواسه ، وقلبه يدق بشدة ، وريقه قد جف تماما . كان أسعد رجل يلهث . لكنه لم يسمح لخياله بأن يشوه صورة المستقبل .

وأحس بدوار جميل وهو يهبط السلم بعد انتهاء الحصة ، واتجه إلى حجرة المدرسين وجلس وكانت خالية تماما .. وبينما هو يتأمل صفاء زجاج إحدى النوافذ ويوازن بينه وبين زجاج الريف إذا به يستدعى لمقابلة الناظرة التى ابتدرته وهو عند الباب :

ـ أستاذ معوض . لقد اتصل بى مفتش القسم وطلب أن أخبرك بوجوب الذهاب فورا إلى مدرسة الـ ...

كان عرق الأستاذ لم يجف . ومنديل شديد البلل يعيد به مسح عرقه وعينيه وسألها :

ـ ألست منقولا إلى هنا ؟

ردت بلهجة لم يحلها الصبر :

ـ قلنا إنك زائد .

ـ يعنى ..

ـ اذهب يا أستاذ ، يا أستاذ .

وخرج الرجل يترنح . ذكر الواقفين على محطات المواصلات وشعر بمللهم . وعز عليه أن يكون شيئا زائدا . و لم يدر لماذا تذكر معصم إحدى جاراتهم المثقل بالغوايش ! ومط شفته . لكنه سار يقطع طريقه فى صبر .

دخل على الناظرة فى المدرسة الثانوية فصرخت فى وجهه :

ـ حل هذا الموضوع عند المنطقة .

ـ لكنهم قالوا أن أجىء إليك .

عادت ترد بلهجة ضجرة :

ـ قلنا المنطقة المنطقة المنطقة .

فاستدار السيد معوض خارجا والعرق يرسم على ظهره بقعتين كبيرتين . وقبل أن يصل إلى الباب نظر فى تردد وبعينين حائرتين وقال :

ـ عند مفتش القسم ؟

ـ المدير العام .

رد فى عتاب إلى مجهول :

ـ هل أنا مدرس زائد إلى هذا الحد ؟

ففغرت الناظرة الثانية فمها ، ثم استرسلت ضاحكة :

ـ مدرس ؟!.. حسبتك أحد أولياء الأمور .. وقد كان هنا منذ ساعات .. آه آسفه يا أستاذ .. لكن الحصة مضى نصفها .. عليك أن تصعد إلى ثانية ثان .. (وقالت بسرعة) بسرعة ..

كان السلم ضيقا وغير مريح . المدرسة قديمة والدرجات متآكله .. لكنه تحامل .. كان فى الزقازيق لا يصعد الأدوار العليا أبدا .

كانوا يشفقون على بدانته . أما فى القاهرة فقلبها قلب غانية .. وبعد مشقة وصل وهو يلهث . العرق بلل مقعدة البنطلون . ولذلك عندما استدار يكتب شيئا ما على السبورة ضحكت التلميذات .

وولت من حواسه نشوة الياسمين . وشعر بغربة . وقضى معظم الوقت يتبادل (الحملقات) مع العيون الشابة جدا . وهو يهدد وهن يسخرن فى صمت .

وهبط الدرج دائخا حتى وصل إلى مكتب الناظرة بعد انتهاء الحصة وقدم لها نفسه من جديد . فقالت :

ـ ستبقى عندنا أسبوعا على الأقل حتى تنتهى إجازة السيدة همت .. أقصد إجازة الولادة . وبعد ذلك .. (وهزت رأسها) .

و لم يدر لماذا أحس بأنه زائد جدا جدا . و لم يستطع النظر إلى الناظرة فقد كانت شرسة .

كانت المدرسة الثانية بعيدة جدا عن مسكن السيد معوض ولذلك وقف فى محطة الأتوبيس مثل الناس الذين رآهم من قبل ، بيته قريب من باب الحديد .. كان يذهب فى الصباح الباكر ماشيا ليركب قطار الزقازيق . واليوم كثيرا ما يقف على سلم العربة ويصل متأخرا أحيانا .. وأخذت كلمة (زائد) تقلق راحته وتقلل وزنه فى نظر نفسه .. لكنه احتمل هذا الأسبوع . وكان السلم الطويل بالنسبة إليه عذابا لا يعرفه أحد .. وقد حذره الطبيب منه كثيرا . ومن غير تحذير . فهو شىء لا يطاق لذلك فارقته البهجة . وأظله اكتئاب غير عادى عجبت له زوجته . كأنما أحس الرجل بالغربة بعد أن فارق الريف .

وقبل أن يغادر المدرسة لعودة السيدة همت من إجازة الولادة جاء أمر من المنطقة بذهابه إلى مدرسة ثالثة لأن أحدى المدرسات نقلت منها إلى الإسكندرية .

وكانت المدرسة أبعد . ولما دخلها قالت له الناظرة : أولى أول يا أستاذ .

وصعد طابقين اثنين فقط . لكن السلم على اتساعه ونظافته كان قاتلا وعلل السيد معوض هذا بكثرة الجهد . لكنه تجلد وأمضى ثلاثة أسابيع بانتظار أن يعود إلى المدرسة الأولى تلك التى قابلت فرحته وشم منها أنفاس الياسمين . بانتظار أن يعود مدرسا غير زائد له جدول حصص خصوصى فى حصانة وثيقة مسجلة . وتلاميذ ينتظرونه ...

ولم يكن يصدق أذنيه حين أخبرته الناظرة أنه مطلوب لتلك المدرسة فذهب جريا . ولقيته الناظرة بعينيها الجميلتين ورحبت به وطلبت إليه الجلوس حتى يأخذ أنفاسه . والمنديل المألوف الذى شبع عرقا لا يزال فى كفه يمسح به وجهه وعينيه . ثم قالت له وهى تبتسم :

ـ ستشرفنا هنا مرة أخرى يا أستاذ معوض .

فقال بصوت مغلوب جدا :

ـ زائد أو .. ناقص ؟! .

وضحك . فقالت :

ـ السيدة اعتدال حدث لها حادث .. أو .. إجهاض ..

فأخذ يهز رأسه ويعض أسنانه .. بعضها ببعض .. وشعر وهو جالس أنه مسئول عن كل هذه الأحداث . لم الشمل والإجهاض والولادة وفى

القريب شهر العسل .وحضرته صورة زوجته ببطنها المكور وهى أيضا فى شهرها الثامن . لكنها ليست موظفة .

وساد صمت قالت الناظرة بعده : ثالثة أول يا أستاذ !

وقام وهو يعرف إلى أين سيصعد . ثم تفح رائحة الياسمين فى المكان . كان حائرا مكتئبا : « أين الزقازيق ؟ » ، وقبل أن يخرج من الحجرة قال للناظرة فى بساطة :

ـ لى سؤال .. لو .. سمحت .

ـ تفضل .

ـ عدينى ألا تغضبى من كلامى .

ـ لن أغضب .

ـ أنا تعبت هنا . قطار الزقازيق والصباح الباكر وكونى مدرسا لا زائدا ولا ناقصا أحسن عندى ألف مرة من هذه المظاهر .

ـ وماذا تطلب ؟ هل تريد أن تعود إلى الزقازيق ؟

هز رأسه :

ـ لا ..

ـ إذن ..

ـ أريد أن آخذ إجازة فى الشهر القادم لمدة شهر .

ـ وكيف ذلك ؟ لابد أن تكون بالخصم إلا إذا كانت مرضية .

ـ لا أريدها مرضية ولا أريدها بالخصم ، انظرى .. لى شهران الآن وأنا نائب عن سيدات يقمن بأعمال مهمة .. أنت تعرفينها .. السلم قطع قلبى .. وزوجتى فى الشهر القادم ستقوم بنفس هذا العمل .. ستلد .. فلماذا لا تتحمل الحكومة من أجلها ما تحملته من أجل غيرها

وتمنحنى إجازة لخدمتها ؟. إنها لا أحد لها . مسكينة .. انظرى تجديها معقولة ومن باب تكافؤ الفرص .. ومحسوبة ماليا ، وإلا كان على الجميع ألا يكلفوا الحكومة شيئا .

كانت الناظرة تحملق فى ذهول .. بينما خرج فى طريقه إلى الفصل .

كان يصعد السلم وهو يلهث ويضحك ويمسح عرقه بينما الناظرة تلهث من الضحك .

الثمـرَة الحُلــوة

كانت هذه هى الشجرة الوحيدة من نوعها فى حدود بضعة كيلومترات مربعة بين الحقول . وهى لذلك كانت شهيرة . كانت أشهر شجرة جميز فى المنطقة كلها . و لم تكن كبيرة جدا .. بل كانت لا تزال فى سن الشباب .

وهى على الرغم من شبابها أيضا كانت شهيرة : تحتها يأكل الفلاحون فى الصيف فى الظل المشبع بالرطوبة ثم يستأنفون عملهم بعد الظهيرة . ومن فوق فروعها فى الصباح قبل شروق الشمس كان أبى يتنقل بخفه من فرع إلى فرع ليجمع الثمار الناضجة فى سلة كلما امتلأت أدلاها إلى الأرض بالحبل فأحتضنها وأفرغ ما فيها ثم أتركها ليشدها أبى إليه من جديد ..

كنت أشم فى رائحة ثمارها نكهة فريدة . ليست مثل نكهة أى جميز .. كأنه من فواكه الجنة . وأرى فى اللون الأحمر القطيفى داخل الثمرة منظرا يسلب لبى ، بين الشفتين السمراوين اللتين خلقهما أبى من شق الثمار لكى تنضجها الشمس .

كنت أرى أبى يتنقل عليها بخفة من يعرف شيئا (صنعه) .. كأنه لم يكن (زرعها) بل كأنه صنعها فعرف دقائق فروعها ومواطن الأمن والخطر فيها ..

لا أدرى ..

ربما كان العشاق يلتقون تحتها بالليل والقمر يسامر نجمة (الزهرة) ولا يسمع فى الحقول إلا صرير الجنادب ..

لا أدرى .. لماذا قال كل الناس إن ثمرها حلو؟!.. هل لأنها من الأشجار التى لم تشهد فى الريف - تحتها - ولو لمرة واحدة حدوث جريمة ؟!

لا أدرى ..

حتى إن أبى كان قد حرم فروعها على المنشار تقريبا . فكان إذا ما احتاج لبعض الأدوات الزراعية فإنه يتصرف .. لكن لا يقطع منها فرعا ..

لا أدرى ..

هل نرث حب الأشياء ولو كانت بلا حاسة عن آبائنا ؟! فقد ورثت حب هذه الشجرة عن أبى كما ورثت حب الحقل الذى زرعت على رأسه ، وكذلك حب الظل .. هذا الظل ظلها .. أقصد ذلك ..

ولما كبرت عرفت من خلال إحساسى هذا سر الحب .. فما الفرق بين شجرة وحقل ووطن ؟! ليس هناك فرق مطلقا ما دام الكل يرمز للتراب الذى منه خلقنا فى هذه الأرض .

لا أدرى ..

كان أبى يفتل تحتها الحبال ويجدل تحتها الخوص ويفرز تحتها القطن قبل أن يعبأ فى الأكياس ويحمل إلى المخزن . وكم رأيت أخواتى البنات يغنين تحتها ، وكم نصبت مرجيحة من حبل كبير وسبحت به فى الفضاء وفى ظلها . وكم بقرة من أبقارنا ولدت تحتها وسمعت ثغى الحيوان وهو ينطق بالحنان فى ترجيع صوته والنفخ من منخريه والليونة

فى نظراته وعينيه . يخيل إلى أن تحت هذه الشجرة لم تقع تحتها جريمة ما . كأن كل شيء حولها مثمرا. حتى الظل نفسه .

وحدث أن غبت فى الجندية مدة ليست بالقصيرة . أولى لياليها أذكرها . عندما كنا مجموعة كل واحد منا يسأل من معه عن بلده وأهله . ولما انقضى النهار فى تدريب عنيف وتناولنا عشاءنا ثم أوينا إلى مضاجعنا عادت بى الأحلام إلى ظل هذه الشجرة .

وكان طيفها فى ليال كثيرة يمشى جنبا إلى جنب مع طيف أمى وأخواتى وأبى . وطعم ثمارها يملأ ريقى فى الحلم وأنا نائم مثل طعم قبلة لا تنسى .

وكثيرا ما سألت أهلى عنها فى الخطابات وكانوا يردون على قائلين إنها بخير وعافية فهل تزوجتها ؟!

لكننى كنت أشعر أن ما يقولونه لى بعيد عن حقيقة الإحساس الإنسانى كله . غير أننى كنت أعجب من عدم تقديرهم لشعورى نحو شيء يعتبرونه صغيرا . حتى تصورت ذات ليلة وأنا راقد بين الجنود ماذا عساى أن أفعله لو تطاولت يد أجنبية للمس فرع من هذه الشجرة !!!

وكنت أعود إلى قريتى بين حين وحين . كان أبى يلقانى بوجهه البشوش ويقبلنى حتى أحس بطول لحيته ثم يمسح على وجهى وكتفى وأنا جالس إلى جانبه ويقول لى فى دعابة عميقة المغزى :

- إيه ؟!.. وكيف حالك هناك .. فى الجندية؟! مؤكد أنك رجل . وعلى كل هى ستكمل نقصك وتعلمك ما ينبغى إذا كان فيك نقص .

- وهل هناك أحد يخلو من النقص يا أبى ؟

هز أبى راسه وأطرق ومسح بكفه على لحيته ثم قال :

ـ أنا أعرفك . نقصك أحيانا يأتى من أنك إذا أحببت بالغت فى الحب . (وسكت) وعلى كل فإننا جميعا نتعلم .

وعندئذ سرح خاطرى حول الذين بالغت فى حبهم . وقام أبى فاستغرق فى صلاة العشاء وقتا كافيا جدا لأن أفحص أفكار نفسى ، ثم عاد فجلس إلى جوارى ورائحة الدعاء والطيب تفوح منه . لكننى ما لبثت أن فأجاته .

ـ أبى . ممكن أن أسرد عليك بعض الذين بالغت فى حبهم . أولهم : أمى ..

و لم أستطرد لأن أبى أرسل ضحكة صافية كان الشباب يملؤها ، ثم نظر إلى بعينين حانيتين وقال مداعبا :

ـ عظيم . وأنا أحبها أيضا . وأحب معها امرأة أخرى . فهززت رأسى فى حياء لم يلبث أبى أن قطعه فى مرح حلو :

ـ أحب شجرتك وأحب معها أمك (ها ها ها) لكن مالى أقطع عليك أفكارك ، أكمل .

قلت :

ـ وبعد أمى وأبى طبعا يأتى صديقى فلان .. وتأتى .. آ .. الشجرة التى سألتكم عنها فى خطاب فسخرتم منى .

وأخذنى حماس مفاجئ فاستطردت :

ـ لنا زميل فى المعسكر له صفة غريبة يمشى وهو نائم . إلى حد أننا كنا نخاف عليه فى بعض الليالى .. لكننا حين ناقشناه فى هذه الحالة التى تنتابه لم يبد شيئا من الأسف بل قال لنا إنه يستفيد منها إذ أنه

يعرف مدى حبه لبعض الناس . وحكى لنا حكاية . هى أنه قد أحب فتاة فى القرية ورغب أن يتزوجها لكن والديه رغبا فى زواجه من فتاة تقرب لهم . ووافق الشاب وفض الخطبة . لكن حدث أن استيقظ ذات ليلة أهل الفتاة التى يحبها على نقرات على باب الدار فلما فتحوا وجدوه واقفا .. صامتا .. نائما .. فقاد أحدهم خطاه ـ لأنه كان يعرف بعض الحقيقة ـ فى صمت إلى دارهم .. ثم .. كان هذا سببا فى زواجه من أحبها .

رد أبى فى وقار وبعد تفكير :

ـ يعنى .. أن الحب لا ينام ؟!

ـ حتى ولو كان لشجرة . فما بالنا بما هو أكبر . بالوطن مثلا .. ولعلك لا تصدق يا أبى أننى كنت ألعب فى معظم الليالى تحت شجرتنا التى تعرفها . ألعب فى المنام . كما ذهب ذلك الشاب نائما إلى دار من أحبها . لكن .. مثلا .. آه يا أبى ماذا أقول لقد ذهب شاب وهو نائم فدق باب فتاة أحبها ، لكن هل سمعنا أن شابا ذهب وهو نائم فقتل شخصا كرهه ؟! لا أعرف .

رد أبى :

ـ حسن . لو أنك أتممت تعليمك لكنت أكثر سعادة بك . لكن عليك ما دمت حساسا هكذا أن تتعلم فى الجيش صنعة ما .

ـ أليست الزراعة صنعة يا أبى ؟

ـ لا أريد لكم أن تتزاحموا على الفدادين . الزحمة تورث الكراهية . لو تعلمت حتى قيادة السيارت أو طريقة إصلاحها أو أى شىء لكان ذلك فى صالحك .

ـ وأعيش بعيدا عن الريف ؟! أنا أحبه .

- يا بني .. أنت طبعا تعرف عمك صلاح شقيقي . كنت كلما جلست معه حدثني عن عالم بعيد يحلم به . عالم غير الحقل والزرع والشجر والطيور . عالم ليس صامتا مثل عالمنا هذا ، بل عالم ملآن بالطرقات والضجيج . وقد أصبح اليوم كما تعرف . مع أنه لم يتعلم إلا صناعة السواقي من الصاج . وأصبح موسرا . متى ستعود إلى معسكرك ؟ بعد يومين ؟! بسلامة الله !!!

ها هي ذى الأيام قد مرت . وتغيرت الدنيا . لكن نصائح أبى لم تفلت من ذاكرتى . فقد تعلمت قيادة السيارات ثم إصلاحها . وبدأ عالمى يتغير .. بدأت أشعر أن الضجة فى المصنع لها مغزى الصمت فى الحقول . لأن يد اللّه تتناول الإنبات فى الحقول فى صمت ، ويد الإنسان تتناول تحويل الأشياء إلى أخرى فى المصنع فى ضجيج . لكننى لم أنس قريتى .. وتزوجت منها ، وكنت أسافر إليها بين حين وآخر .

حتى حدث أن ذهبت ذات يوم . قابلت أبى فى شيخوخته وأمى وبقية الأسرة .. وجرى بيننا الحديث المألوف والحب والتحية حتى قال لى أبى بلهجة لا تخلو من الغموض : ألا تريد أن تأكل جميزا ، هل نسيت الشجرة التى كنت تكتب السلام لها فى الخطاب كأنها أختك « بهيجة » ؟ ضحكت ، واستطرد أبى . اذهب فكل منها وأحضر إلينا شيئا ..

ومشيت بين الحقول ، المسافة لم تكن قريبة ، وكان الصيف فى عنفوانه والأشجار قليلة على الطريق ، حتى قربت من الحقل فإذا بالدنيا تغيرت .. هناك مصرف يشق . وقنطرة للعبور . وتراب متراكم . هناك

مناظر تدل على إصلاح جديد . وأشجار صغيرة مغروسة على شاطئ المصرف ..

وتلفت نحو الشجرة الكبيرة التى أقصدها فإذا بها قد لحقها القدر . إذ أصبح موقعها فى وسط المصرف تماما فقطعوها . وهناك جزء من حقلنا قد أخذ للمصلحة العامة ..

لا أنكر أن قلبى قد خفق . وأننى تلفت حولى كالتائه حتى وجدت الشجرة نفسها . أخشابها على الأرض فى فروع ضخمة . بلا جميز ولا ورق ولا مراجيح .

وتذكرت قصة الشاب الذى طرق باب حبيبته وهو نائم بعد أن حرموا عليه الزواج منها . لكننى تذكرت ماذا أصنع بالحديد . ماذا تصنع يداى به . تضعه في النار حتى يصير نارا ثم تستفيد به . وعندئذ نظرت إلى الخشب وساءلت نفسى : ماذا يمكن أن نصنع منه ؟! ولو كانت الشجرة واقفة لما حدث هذا . لعادت إلى إيحاءاتها كلها لكن .. لقد دخلت هى عالم الصناعة بعد أن كانت فى عالم الزراعة .

وعدت إلى الدار . قابلنى أبى يضحك وهو ينظر فى عينى معتقدا أننى سأبكى . لكن ذلك لم يحدث . ابتسمت : فصافحنى قائلا لى : شاطر . شاطر جدا يا ولد . الحياة ليست ظلا وفواكه ومراجيح وحبا فقط . الحياة يا ولدى مثل السيف .. زينة ، وسلاح ، وأداة للحرب .

حُرّاس عَلى الزمَن

ما كنا نعرف قط ونحن أطفال شيئا من ذلك السر الذى يحمله وجه عم « بسيونى » .. مع أننا كلنا على يقين من أن عم بسيونى لم يتلق شيئا من التعليم .. لكن ملامحه المطمئنة فى يقظة ، وقامته الممدودة فى استقامة ، وشاربه المنسق بمهارة ، وأعماله التى تفوق الامتياز فى خدمة المدرسة القروية التى كنا بها ـ كل ذلك جعلنا نفهم فيما بعد . لماذا كان عم بسيونى مطمئنا دائما .

كنا نتمنى أن نرى شيئا يخيفه . ومنظر الخوف على وجوه الناس منظر ليس غريبا . إنه يقع كل يوم وربما رأيناه فى يوم واحد عشرات المرات . لكن منظر الخوف على وجه شجاع هو ما كان يلهب الشوق فى خيالنا .. لأن وجوهنا نحن الصبيان كانت علامات الخوف والأمان تتراوح عليها باستمرار طول اليوم المدرسى كما تتراوح السحب فى سماء الشتاء .

وكان عندنا فى المدرسة شيئان مخيفان للغاية . أحدهما الناظر ، وثانيهما الناقوس !

وكنا جميعا نتعامل معهما نحن وعم بسيونى .. لكن شجاعة عم بسيونى مع الناظر كانت تلقى فى قلوبنا بذورا يومية من المحبة والتقدير له ، فكان إذا ناداه من بعيد طالبا كوبا من الماء رأينا شيئا أصفى من البلور على كفه الريفية الضخمة النظيفة يسعى بها فى طمأنينة ونشاط لا حدود لهما ، على حين كان بعضنا يتأمل المنظر وهو فى دهشة

شديدة من أن الكوب لم يسقط من يد عم بسيونى لمجرد حملقة الناظر فيه بعينيه .

أما هذا الناظر فلم نكن نعرف الطريق الذى يصل به إلى المدرسة يوميا وبالتأكيد .

كان مولعا بالغموض ولعله كان - وهو المربى - يدرك أن الغموض بالنسبة للصبيان يثير خيالاتهم لصالحه فهم يتوقعون رؤيته فى كل مكان أو كل زمان ، والمدرسون كاملو العدد ، وأبواب الفصول مفتوحة ، والحوش مرشوش . وسلسلة الجرس تبحث عن يد تشدها لحظة .. لذلك كانوا يحاولون استغلال أوقات الصباح التى يقضونها فى الحوش الداخلى أو الخارجى - فى استذكار دروسهم فى الوقت الذى تكون الشمس فيه زحفت على حديقة المدرسة وداعبت أشجار الرمان المرشوشة ، تلك التى كانت عصيها اللدنة تستعمل عند اللزوم فى يد الناظر المهيب .

وفى نفس الوقت كان الناقوس النحاسى الضخم يبدو معلقا فى جلال وصمت تتدلى منه سلسلته الحديدية بلا حركة ، وقد غطى سطحه الذى يشبه القبعة صدأ النحاس المعروف . لكن هذا الصدأ لم يؤثر على الصوت ولا على ما يتركه الصوت فى نفوسنا نحن الصغار .

وفى الوقت نفسه أيضا كان عم بسيونى يبدو سريع الحركة يجرى فى كل ركن من المدرسة لأنه هو العامل الوحيد فيها . كان يحاول فى تبتل أن يرسم الملامح الأخيرة للجمال الذى يصنعه بيديه كل يوم . فالحوش مرشوش . وحوض كبير من الالمنيوم خاص بهيئة التدريس قد

امتلأ بالقلل الملأى النظيفة التى تستوقف كل نظر. وروائح متعددة المعانى تنبعث من أرض الجنينة الصغيرة والنباتات المروية .

وأخيرا يصل الناظر من طريق لا يخطر على بال التلاميذ .. من بين الحقول أو من وراء المبانى أو من الطريق العام أو على دابة أو سيارة . لكن التلاميذ كانوا يعرفون الطريق الذى يصل منه فى يوم ما إذا سمعوا أصوات بعضهم هناك ترتل فى اجتهاد مفتعل أو خائف بعض آيات من القرآن أو شيئا من المحفوظات أو العلوم .

ويستقبله عم بسيونى أثناء مروره عليه وهو يعمل بوجه غامض مشغول ، خال من الترحيب والخوف ، ملىء بالاحترام والأمان .

وفى هذه اللحظة يكون كل شىء على وشك الوصول إلى الذروة ، على وشك الاكتمال .. فالتلاميذ يصيحون بما يحفظون أو بما يريدون حفظه .. والجنينة الصغيرة ازدهت بكل الألوان ومعظم الروائح .

أما عيون التلاميذ فهى تدور فى تطلع فضولى مستمر نحو الشيئين المهيبين فى هذا المحيط الجميل المخيف ، تتطلع تارة نحو الناظر وتارة نحو الناقوس ، فيرون الرجل منتصبا بقامة فذة ورأس كبير فى سلاملك داخلى وفى يده ساعة جيبه الكبيرة ينظر فيها كأنه يعد الثوانى . وعلى وجهه الأسمر هدوء من يعرف الخوف فى نظر الصبيان .

ثم يرون الناقوس فى غمار صمت عجيب .. ولعل بعضهم كان يسأل نفسه : « أين تكمن كل هذه الجلبة والضوضاء فى هذا الشىء ؟! إنه أشبه بشلال يتدفق منه الصوت .. فأين يختزن كل هذا ؟! إن الفلاحين فى الحقول يعرفون الوقت بصليله .. وكذلك الأمهات فى

الدور . وكثير من الطيور تفزع وتترك الأشجار التى وقفت عليها ، ثم تعود بعد أن يصمت .

وبعد هذا وذاك يقع بصرهم على عم بسيونى الذى ينظر فى ساعته أيضا ، إنهم يضبطون الوقت .. أحدهما فى الداخل وهو الناظر والآخر على مقربة من الناقوس المدقوق فى السور .

وتحين لحظة معينة فيرتفع صوت الناظر من هناك قائلا :

- تمام يا بسيونى ؟.

فيرد عليه صوت من هنا :

- تمام يا حضرة الناظر ! .

تمتد الذراع المشمرة التى لوحتها الشمس وفتل العمل عضلها فتمسك بالسلسلة ، ويميل جذع عم بسيونى ويعتدل على التوالى فتعلق عيون التلاميذ بالناقوس وهو يرسل صوتا من الممكن أن يستمر إلى الأبد . عمقه يحسه القلب قبل الأذن وصوته لا يقول كلاما بل يوحى بكل ما سيلقاه كل صبى على حدة داخل هذه الفصول من كلمات ثناء أو عتاب أو عقاب . وربما كانت صلصلته فى ذهن أحدهم تقرأ جدول الضرب فتؤكد الحفظ لذلك التلميذ ، أو ربما حملت كلمات مخيفة أو صيحة مدرس فى مجموعة لا تريد أن تفهم .

والغريب أن عينى الناظر كانتا تراقبان باستمرار أرجحة الناقوس وهو يصلصل . هل كانت هذه لذة شخصية . أو كان الناقوس لا يستطيع أن يؤدى مهمته على الوجه الأكمل دون أن ترقبه عينا الناظر اللتان تشبهان عينى النسر ؟

وكان عم بسيوني يحملق في قلب الناقوس وهو يدق . بينما الصفوف .. صفوف التلاميذ أخذت في الانتظام .

ويدخل الناظر ساعته إلى جيبه ويراه عم بسيوني فيكف عن القرع ، ويأخذ الصوت النحاسي العميق في التلاشي ساحبا وراءه أذيالا من صدى الصوت . وعندما يسيطر الصمت تبدو الحديقة لأعين التلاميذ وكأنها صحت من النوم ، وتحوم في سماء المدرسة بعض الطيور عائدة إلى أشجارها .

وعندئذ يبدأ صوت الإنسان في الظهور بعدما كف صوت الناقوس . يبدأ أحد المدرسين في القاء أوامر بينما قامة الناظر ظاهرة في السلاملك الداخلي وعم بسيوني يجول باحثا عن عمل جديد .

كان التلاميذ يستمعون في اليوم الأخير من العام الدراسي إلى دقات الناقوس وينظرون إلى جسمة العظيم المعلق .. ولعل بعضهم كان يقول في نفسه :

ـ غدا ينتهي كل شيء .. ويتأجل للعام المقبل .. غدا سيلزم الناظر قريته البعيدة .. ويلزم عم بسيوني حجرته المحبوسة في هذه المدرسة .. أما الناقوس فستبقى سلسلته مدلاة هكذا كضفيرة من حديد لا تمتد إليها يد .. حتى يجمع القطن وتغطى الحقول أعواد طويلة من الذرة وتصفر هذه الشمس الحمراء .

وقد حدث . فبدت المدرسة مثل خلية بلا نحل ولا إبر ولا عسل .. لا فرق بينها في المنظر وبين وابور طحين في إجازة .

ولعل عيني الناظر كانتا تحملقان في مستطيلات « الدومينو » على منضدة في الخلاء حيث يلذ له أن يلعبها هو وبعض أصدقائه .

ولم تعد الساعات اليومية تنقش فى الأذهان البيضاء نقوشا تجعل الرءوس ثقيلة الوزن .

أما عم بسيونى فكان يقطع الوقت خارج المدرسة مع بعض أنداده فى ألعاب قروية وثرثرة حصيلتها صفر .

ولعل أحدا من الناس سأل نفسه عن النتيجة عندما تفرقت هذه الأشياء المجتمعة .. عندما غاب الناظر وغاب التلاميذ وسكت الناقوس وكف عم بسيونى عن النشاط المألوف .

ولعله أيضا قد أجاب قائلا : إن العين تغمض بالليل لكى نرى جيدا وقت الصباح .

***

لكن عددا من التلاميذ جالوا حول مدرستهم بالنهار فرأوها غير التى يعرفونها ، ثم تسلقوا السور الخلفى وألقوا نظرة على كل شىء فى الداخل فرأوه غير الذى يعرفونه . حتى الجنينة كانت فى حالة خمول ، أما أبواب الفصول فكأنها موصدة من زمن طويل .

وأخيرا حانت منهم التفاتة نحو شىء له فى قلوبهم وزن أثقل من وزنة الثقيل ، نحو الناقوس .

ضحك بعضهم : « هذا الذى كان يترك قلوبنا تدق كل صباح ؟! ما له اليوم قليل القيمة ؟! » .

وعندما نزل الظلام وأوى الناس إلى مضاجعهم عادوا .

كان عم بسيونى فى حجرته المحبوسة وحيدا . مثقلا بالنوم بعد عشاء جهزه بيده من لحم وأرز يوم سوق القرية . كان قد بدأ يحلم . كان

هناك فى المنام شىء يخيفه . لأنه لم يتزوج حتى فى هذه السن وهو مهدد بالوحدة والظلام .

شىء ما فى الحلم كان يهاجمه . له صوت فظيع ، صوت ضخم ، واستيقظ ، فتح عينيه فزاد انزعاجه . فضل لو أنه بات سابحا فى خوف الأحلام فذلك أخف من تلك الحقيقة .

هتف فى سره : « يا ربى ! ما هذا ؟ ماهذا الذى يدق الناقوس فى هذه الساعة من الليل ؟! » .

دق قلبه بقوة آلاف الدقات من آلاف التلاميذ فى ساعة الصباح وأيام الامتحان ، وأراد أن ينهض من مرقده فلم يستطع . ذلك الذى لم يخف من ناظر المدرسة لحظة ما . و لم يدر كيف كانت القلوب تدق من هذا الناقوس ؟

وأخيرا نهض . وخطا فى الظلام . وكان الناقوس يدق متلعثما . نعم كأنه نسى لغته . أو كانه يخاطب من لا يفهم .. ما يقول .. وعندئذ انتصب عم بسيونى وهتف بكل قواه : من هناك ؟!

وبعدها احتبس صوته ، لكن الغريب أن الناقوس صمت وأخذ الصدى يسحب أذياله فى الليل .. فتشجع . وجرى نحو السور . أرهف السمع . فوصل إلى أذنه ضحكات صغيرة عرف ممن تكون . لابد أنها من الصبيان الذين أرادوا أن يسمعوه الصوت الذى أسمعهم اياه ..

وأحضر مصباحا فرأى حبلا إضافيا قد ربط فى السلسلة ، وبكرة على الحائط لتساعد على الحركة .

ضحك الرجل ثم عاد إلى مرقده .

***

وانقضى الصيف .. وعاد الناظر والساعة والمدرسون ورش الحوش . وضحكت الجنينة . وملئت القلل .

ووقف عم بسيونى على مقربة من الناقوس . والناظر هناك فى السلاملك الداخلى .

ونظر فى ساعته وقال كلمته المألوفة :

ـ تمام يا بسيونى ؟

فرد الرجل وعلى فمه ابتسامة يعرف سرها بعض التلاميذ .. بعض الذين عبثوا بدق الناقوس فى ليلة ظلماء . رد قائلا :

ـ تمام يا حضرة الناظر .

وأمسك بالسلسلة ، وحرك الناقوس . وكان فى هذه اللحظة يبعث بشلال جديد من الأصوات أعلى من كل سنة ، فدقت قلوب كثيرة . و لم يكف الرجل الذى كأنما نسى نفسه حتى أشار إليه الناظر بأن يسكن .

وبعدئذ ارتفع صوت مدرس شاب يصدر أول أمر له فى العام الجديد قائلا للتلاميذ :

ـ إلى الأمام .. سر .

وساروا إلى الأمام .

لكُـل شـــىء أوان

بين حين وحين كان يرى فى منامه أنه يفعل شيئا شخيفا .. شيئا شخيفا لكنه لا يخلو من تساؤل . وعندما يستيقظ من النوم يتلفت حوله فى خوف ويقلب يديه ثم يشعل النور ويستلقى فى الفراش حتى يعود قلبه إلى هدوئه .

ومن خلال أهدابه المسبلة كان يتفقد حجرة نومه الواسعة ذات الطراز القديم الذى يحوى الجمال والوقار ويوحى للداخل بأن أرواحا قوية (مهذبة أو غير مهذبة) لكنها قوية على كل حال ، عاشت يوما ما فى هذا المكان .

ومن خلال أهدابه المسبلة يستذكر تفاصيل حياته . ثم أيامه القريبة ثم .. لياليه الأكثر قربا ، ولا تلبث تقطيبة عدم الرضا أن تغطى جبينه . وتظهر على الشفة . لكن أنفاس هذا الشاب لا تلبث أن تنتظم .. وينام .

***

وفى اليوم التالى تأخذه الحياة كما تأخذ كل حى .

وهو فى طبيعته الشابة مزدوج التركيب .. وربما كان من النوع الذى يشعر بوجوده الشخصى دائما . فهو لا يغيب عن ذاته أبدا .. أعنى أنه عندما يعمل عملا ما .. طيبا أو غير طيب يصبح أو يمسى أثناء هذا العمل وكأنه شخصان لا شخص واحد .. شخص يعمل وشخص يراقب أو يحكم على عمل الثانى .. وليس من الضرورى أن ينفذ أحدهم

حكم الآخر عليه . لكن المهم ، هو أنه يعرف وزن ما يعمل . ومقدارة بالضبط فى ميزان الحسن والقبيح ..

***

كان أبوه رجل شهوات منطويا على نفسه . كل عالمه هو ذلك العالم المحسوس . يملك من المال ما يغذى به رغباته . له عينان كعينى صقر ورأس كبير كثيف الشعر ضيق الجبين . مات هذا الأب ولم يتجاوز الأربعين إلا قليلا . وقالت عنه زوجته لابنها هذا :

- إنه كان مثل شمعة تذوب .. ليس لأنها مشتعلة تضىء بل لأنها مغموسة فى ماء يغلى . ولم يكن فى استطاعة يد أن تمتد إلى هذه الشمعة فتنتشلها .. كان الماء حارا وحتى الشمعة نفسها كانت تنزلق من اليد بسرعة إذا ما أمسكتها ..

وفكر الشاب : هل فيه شىء من أبيه ؟؟

لكنه ما لبث أن استبعد هذه الفكرة . وآمن بالإرادة على أنها أساس للسلوك الأخلاقى . ولذلك فقد كان أشبه دائما بشابين .. أحدهما يعمل والآخر يحكم على العمل ..

***

وفى إحدى الليالى عاوده الحلم .. إنه مفزع بخيف .. شعر كأن يده مغموسة فى مجمرة صغيرة .. وهذه المجمرة مصنوعة على هيئة عين .. نعم .. واستيقظ مذعورا جدا وهو يشعر أن يده تكاد تحترق ..

وسرعان ما أشعل النور ..

وكان البيت خاليا . رابضا وحده فى هدوء مطمئن فى أكناف الصحراء ، والأم فى إقامة عند إحدى بناتها لأنها تلد . والخادم يعانى رمدا فى عينيه الاثنتين . وليس هناك إلا البواب والكلب .

لم يدر لماذا أحس بحاجة إلى الصراخ. هو يعلم عن نفسه كما يعلم عنه الناس أنه شجاع القلب إلى درجة غير طبيعية . وكثير من الحقائق المفزعة لم تنهز لها أعصابه .. مثل تلك الليلة التي انقلبت به سيارته وهو عائد وحده من سفر مريب .. وكانت مؤخرة السيارة فى الترعة وهو غير مستطيع الخروج . وعندئذ أسلم أمره إلى الله وانتظر الموت بشجاعة . لكنه فوجىء بمن يثبون إليه وينقذونه وعلى الطريق أخذوا منه نقوده الكثيرة وسمع أحدهم يقول : انظر نصف عملنا للّه ونصفه للشيطان . وقهقه فأحس كأن هذا خلاصة لخلاله وجزء من أفكاره . وواصل هو السير إلى أقرب مدينة بجلادة لا نظير لها . وكأن شيئا لم يحدث له .

***

لكنه عندما استيقظ هذه الليلة فزعا وكأن يده محروقة بالنار فى جمرة على هيئة عين ــ عندما حدث له ذلك كان يرتجف .

وأشعل النور ونظر في الحجرة الواسعة . ووقعت عيناه على صورة أبيه .. رأى عينيه على صورة جديدة ، تومضان في الصورة الزيتية كأنما انبعثت فيهما الحياة . ونظر إلى شعره الكثيف وجبينه الضيق. وخيل إليه أنه رأى ابتسامة غريبة متحيرة على شفتيه .

وعاد يتذكر تفاصيل حياة أبيه .. زوجاته الثلاث اللائى كن يدبرن له مع كل فرصة لهوا وهموما . واسفاره إلى أماكن لا يبوح باسمها ..

ثم انصرافه عن الناس وحتى عن صحبة أولاده . ثم موته بطريقه سريعة .. كما تحطم كأسا من الزجاج الرقيق .. والدموع الكاذبة التى ذرفت عليه يوم وفاته . و ... و ...

وشعر كأن هذا كله موجه إليه . ثم ساءل نفسه عن سر ما يحدث له بين حين وحين ولكنه لم يهتد .

جلس مرة مع زميل فى القطار يوم كان مسافرا . وكانت العربة شبه خالية . و لم يـر الجالسان بدا من تبادل أطراف الحديث وكان زميل السفر رجلا مكتملا تبدو عليه الحنكة وطيبة القلب وعلامات المعرفة . وامتد الحديث حتى تناول الشباب ومشاكلهم والعمر الغض الخصب الذى قال عنه الزميل المسافر : إنه أشبه - أحيانا - بأرض خصبة يزرع فيها أصحابها أشجار المر .

أطرق الشاب وسرحت أفكاره . وتذكر أباه وتذكر نفسه ثم قال للرجل .

- سيدى .. إننى أريد أن أقول لك شيئا يحيرنى .. إننى أرى بين حين وحين فى منامى أننى ..

وسكت الرجل بعد أن سمع قوله .. وأطرق .. ثم رفع راسه وألقى نظرة على أرض جرداء وقال للشاب :

- كابوس .. كابوس ..

ضحك الشاب فى استخفاف مكتوم ثم قال :

- طيب .. ذلك ما أعرفه ..

قال الرجل :

ـ هناك كابوس يكون من صنع الطعام والشراب يعنى من زحمة المعدة .
وهناك كابوس يكون من صنع شىء آخر يعنى من زحمة الضمير ..
(ويحملق فيه) هل ضميرك مزدحم ؟!

هو الشاب رأسه فى خجل وحيرة :

ـ آه .. ربما ..

ـ أيام كنت شابا كنت أحاول بين حين وآخر أن أدخل ... هل تعرف إلى أين ؟.. إلى داخل أعماق نفسى .. وأقوم بعملية تنظيف لتلك الأعماق التى لا يراها إلا صاحبها وحده .. ولن يكون هذا التنظيف كاملا تماما .. لكنه على كل حال لا يدع الأخطاء تتراكم ..

وقال الشاب فجأة :

ـ هل أغير حجرة نومى كما أشار بعض الناس ؟!.

فضحك الرجل وسأل :

ـ لماذا ؟ هل فيها ما يثير همومك أو ذكريات لا تحبها مثلا ؟

قال الشاب فى خجل :

ـ ... ليس فيها إلا الأثاث المألوف وصورة لأبى ..

لم يرد الرجل .. أحس أن الحديث بعد هذا فضول .. فقال للشاب :

ـ حاول ...

***

وعندما عاد لم يفعل شيئا . نسى كل ما دار . واسترسل فى حياته .. لكن الرؤيا ما لبثت أن عاودته ولما استيقظ فى هذه المرة. رأى السبب وعرفه أكثر من المرات السابقة .

كـانت أصبعـه السـبابة فـى فمـــه . وكـــان يعـض عليهـا بأســنانه شديدا .. وحرارة أنفاسه مثل حرارة المجمرة .

وصرخ كأنما يريد أن ينقذ يده من فم رجل آخر . فلما أفاق وأشعل النور ونظر إلى صورة أبيه . رأى عينيه وكأن فيهما دموعا . وعلى فمـــه ابتسامة حزينة . وكأنه يريد أن يرفع يده إلى فمه ـ هو الآخـر ـــ ليعـض أصبع الندم ..

وعندئذ أدرك الشاب أن لكل شيء أوانا . فحـرص علـى ألا يفـوت الأوان .

ضَيَــاع وَأمَـــلْ

على مقربة من خضم المولد وفي آخر شارع زين العابدين بالسيدة زينب ، تجمع عدد من الناس حول طفلة صغيرة تبكى .

من النظرة الأولى للتجمع والموقف يتبادر إلى الذهن أن هذه الطفلة ضلت الطريق إلى البيت . كانت تلبس فستانا صيفيا بلا أكمام وشبشبا لا بأس بحالته . أما شعرها فكان أصفر مصبوغا ليأخذ لونا غير لونه . وهى فى الثالثة من عمرها . ليست مرجلة الشعر . عليها وسامة لو روعيت لبدت أحلى مظهرا .

كل ما تعمله الطفلة على حافة الزحام أنها كانت تبكى . لم تردد اسم أحد غير اسم أمها : « ماما .. ماما .. عاوزة ماما » .

ويبدو أن الموقف ظل نوعا ما . لأن دموعها غسلت جزءا من وجهها فجعلته أكثر نظافة ولهبت جزءا آخر . وكانت كفها مطبقة على قرش . ونظراتها فى كل اتجاه توحى بأنها سارت مسافة أحست معها أنها مغتربة .

كان هناك ناس يجتمعون . رجال وغلمان وصبايا وسيدات ، لكن كان الاهتمام باديا أكثر على وجوه السيدات . فأول من سأل الطفلة عن اسمها كان سيدة عليها ملاءة . جلست القرفصاء على الأرض وحملقت فى الطفلة ثم قبلتها وربتت عليها . ولما سألتها عن اسمها

أجهشت الطفلة بالبكاء . كأنما تذكرت أمها . أو كأنما رأت سيدة حسبتها أمها أول الأمر ثم خاب الظن . وعندئذ لم يسع السيدة إلا أن تحتضنها وهى تربت عليها وتسألها عن اسمها من جديد .

تقدم رجل مسن جدا لعله رأى فى الطفلة صورة من حفيدته . ثم أعلن محتجا :

ـ لا داعى للأحضان . دعوا الطفلة فى أمان وعلينا أن نحاول معرفة عنوانها أو اسمها .

نظرت إليه السيدة الشابة بعينين مكحولتين نظرة قاسية ترد بها على سوء ظنه ثم قالت :

ـ هل تظن أنى سأخطفها . يا رجل يا عجوز . أنا أعمل لوجه اللّه . لكنك خرف ..

ثار الرجل وثار معه رجل آخر ، وتناثر على حوافى المجموعة كلمات متداخلة لكن الرجلين قالا كلاما حاصل جمعه . أن كثيرا من الذين يبدون الشفقة فى مثل هذه المواقف نصابون ..

ولم يسع السيدة التى كانت تحادث الطفلة إلا أن تنسحب محتجة .

وفى اللحظة نفسها حل محلها شاب من أولاد البلد يبدو أنه من أصحاب المهن النظيفة ، يبدو أنه حلوانى أو لبان مثلا .. وجلس القرفصاء مكان السيدة التى انصرفت . وسأل الطفلة أن تكف عن البكاء .

وفى فترة من فترات الخمود سألها عن اسمها فصاحت من جديد باكية قلقة العينين : « ماما .. ماما ... عاوزة ماما » . سأل الرجل :

ـ ماما اسمها إيه يا حبيبتى .

ــ اسمها .. ماما .. عاوزه ماما .. ماما ...

ـ اين بيتكم يا حبيبتى ؟

ــ اللى فيه ماما .. ماما .. ماما .. عاوزة ماما ..

قدم إليها الرجل من أحد جيوبه قطعة من الحلوى فرفضت الطفلة أخذها .. وعاودت البكاء . وتهامس ناس على حوافى المجموعة بكلام حاصل جمعه : « لماذا لا يكون هذا الرجل نصابا ؟ لماذا لا تكون قطعة الحلوى هذه فيها مخدر ؟ لماذا لا يحملونها إلى قسم الشرطة هو على مسافة ربع ساعة ؟! » .

على أن الطفلة كانت رافضة كل شىء . تجيب على كل سؤال بالحنين . ولا ترضى ببيتها ولا أهلها بدلا . وظل الرجل الجالس القرفصاء أمامها يحاول أن يستخلص شيئا لكن الوقت طال . حتى سمع صوت شاب يقول بصوت عال جدا منفعل جدا :

ـ يا ناس . يا عالم . إلا تلاحظون شيئا !.

فنظروا إلى الطفلة ثم إليه . فاستطرد .

ـ ألا تلاحظون أن الطفلة فى أحد أذنيها فردة قرط والأخرى خالية، وأن فى يدها قرشا قد أطبقت عليه بكفها ؟ لماذا لا يكون أحد الناس قد خدعها عن بيتها وقرطها وسحبها بعيدا . كل منكم يجب أن يعمل العمل الذى لا تمسه فيه شبهات . ولكن .. أنتم كلكم مستعجلون .

عندئذ اعتبر الرجل الجالس القرفصاء أن الاتهام موجه إليه فنهض واتجه نحو الشاب وقال له :

ـ بذمتك ودينك أنت ربابة مدارس ؟

قال الشاب :

ـ هل أنا قد غلطت ؟

ـ أنت تتهمنى . (وثار) أنا تاجر . أنا حلوانى أكسب ذهبا . ما هذا (الحلق) الذى تتكلم عنه .

تدخل مجهول تدخل أبناء الحلال قائلا : لا داعى للعراك . المهم أن نرد الطفلة إلى أهلها .

وانصرف الحلوانى وهو يحس بمرارة الموقف مستعيذا من فعل الخير على حين تقدمت سيدة مسنة . يبدو أنها من ربات البيوت ، ويبدو أنها جدة .

وجلست القرفصاء أيضا وساقاها ترتعشان وقبلت الطفلة وسألتها عن اسم أبيها . فردت الطفلة وقد رفعت درجة صراخها : « أنا عاوزة ماما .. ماما .. ماما » . فقالت السيدة بتأثر طفح به وجهها المهضوم :

ـ يظهر أنها يتيمة الأب .

فصرخ شاب :

ـ لنذهب بها إلى قسم الشرطة ولا داعى (للبحث الاجتماعى) .

ولما قرب منها وأمسك بيدها رمت الطفلة بنفسها على الأرض وأخذت تتمرغ . فصرخ فيه بعض الواقفين :.

ـ خل عندك شفقة . لابد أن بيتها قريب .

ثم عاودت السيدة العجوز استجوابها :

ـ ماما اسمها إيه ؟

وكأن ذكر كلمة (ماما) دائما سبب لسعة للطفلة لا تجيب عنه إلا بالصراخ . وبكت السيدة العجوز وضمت الطفلة إلى صدرها فنفرت منها .

خيم على الجمع سكون كأنما حيرته الطفلة . أخذوا يستمعون إلى نشيجها المتهالك الذى بدأ يتعب وكل منهم يفكر فى أنه كان من الجائز جدا أن تكون هذه ابنته أو تمت إليه بصلة ما .

ولما خيمت على الجميع هذه الشاعرية المؤمنة زاغت عين الطفلة وأحست بالضياع الصامت بعد الضياع الصارخ .وتنحنح ناس ، وأشعل بعضهم سجاير وراحوا يدخنون .

لكنهم ما لبثوا أن رأوا موكبا صغيرا يأتى منحدرا إلى آخر شارع زين العابدين وهو قادم من ناحية الميدان . وكان الموكب غريبا : عدة نسوة وأولاد وأمامهم مناد يعلن أن طفلة قد ضلت .

وتنفس القوم الصعداء ولم يصبروا حتى يأتوا إليهم فجرى بعضهم لاستقبال الموكب .

ولما التقى الموكب ومستقبلوه أخذوا جميعا يجرون وفى مقدمتهم النسوة . والمنادى يتعثر خلفهم . وتحلق الجميع حول الموكب ولم يظهر من الطفلة شىء كأنها مدفونة تحت ركام بشرى .

وهتف رجل وهو يسير مبتعدا :

ـ الحمد لله .

وقالت امرأة :

ـ يا روح مامتها ..

لكن الموكب أخذ من جديد ينفرج قليلا قليلا عن الطفلة التى سكتت تماما وعراها ذهول . إذ اكتشف الباحثون أنها ليست الطفلة المطلوبة .

***

ومشى النسوة وقد ارتفع بكاؤهن واستأنف المنادى النداء على الطفلة وأرهفت الطفلة سمعها فى صمت وكأنها مأخوذة . وما كاد الجمع يبتعد حتى عاد القوم إلى ما كانوا فيه . أحدهم يستجوب . والأخرى تلوم . وثالث قد يئس ومشى . وعندئذ كانت الطفلة قد استردت أنفاسها وأستأنفت بكاء شديدا وهتافا باسم أمها .

ودخل على المجموعة فى هذه اللحظة رجل فى منتصف العمر . يبدو عليه أنه متعب وأنه لا يملك وقتا . وقال بسرعة :

- ما الحكاية ؟

فقالوا له الحكاية .

وعندئذ قال للجمع بلهجة آمرة :

- الطريق أمامكم . أنتم تعذبونها . كم من الوقت مضى عليكم فى هذه الوقفة ؟ حرام .. تعالوا ورائى إن شئتم .

وحمل الطفلة على كتفه وسار بها نحو قسم الشرطة وهى تصرخ وهو لا يبالى . ونساء يلمن ورجال يقولون :

- ماذا لو صبرنا قليلا . فأقسام الشرطة منظرها يخيف الكبار فما بالنا بالأطفال .

***

كان الرجل يعبر حجرة الضابط والطفلة لا تزال تصرخ بأعلى صوتها :

- ماما .. ماما .. ماما ..

وفجأة أحس ان نداءهــا يلـين وكأنهـا وجـدت شـيئا وفجـأة أحـس بامرأة تمسك يد الطفلة وهى تتعثر فى ملاءتها ودخلوا جميعا إلى حجـرة الضابط ..

قال بعض الناس وهم ينصرفون : قالوا ضاحكين ضاربين كفا بكف :

ـ لو تم هذا من أول الأمر لوفرنا دموعا كثيرة ..

فرد آخر :

ـ كل منكم كان قادرا على حل المشكلة لو نسيتم «حلاوة الكلام» .

اللقـــاء الوحيـــد

بين شارع الهرم فى القاهرة وشارع الكورنيش فى الإسكندرية ملامح كبيرة لكنها غامضة ، فالسائر فى كليهما يشعر بشىء غريب .. يشعر أنه مقسوم بالطول .

ونصفه المواجه للبحر فى الإسكندرية أو المواجه للحقول ناحية اليسار وهو متجه إلى الأهرام .. هذا النصف كأنه فى الظل .. كأنه معزول .. فى حين أن النصف الثانى يحس أنه فى مدينة لا تنام حتى الصباح .

وإذا سار أحد على الكورنيش وهو مخمور ، أو سار فى شارع الهرم فإننى أتخيل أن الرؤى التى تراود عينيه أو خياله تكون رؤى مضاعفة .. فالأماكن التى تذكى الخيال فى الحالات العادية تلهبه وتشعله إذا ما كان الشخص مخمورا .

لكن طالما لذ للأستاذ زاهر ـ وهو حتى الآن يلذ له ـ أن يسير فى شارع الهرم وهو مخمور .

وهو ليس سكيرا ولا يمشى وهو سكران ، لكنه يشعر أن أعصابه وهو مخمور تتحفه بأشياء لا تحصى ، تمنحه حقائق فوق الحقائق خالية تماما من أى ضباب مثل مرآة صقلت لتوها .

وعندما يعاود الحملقة فى هذه الحقائق العليا وهو فى حالته العادية ، قد يجدها فى العظمة التى رآها عليها من قبل ، وقد يحدث العكس ، لكن ذلك يكسبه لذة جديدة يدرك أن يد كل إنسان قد تسقط بواسطة شىء ما على « عدسة مكبرة » تجعل العين العادية من الأعين النجلاء

والحوراء والتى تحوى جمال الدنيا ، وقد يرى بنفس هذه العدسة الأنف الدقيق وكأنه أنف بعير أو أنف ناقة ..

لذلك فإن « الأستاذ زاهر » عندما يغادر أحد الأماكن التى يخرج منها منتشيا ويستقل سيارة أجرة لابد أنه ينزل بعد اجتياز نفق الأهرام بمسافة غير قصيرة ،ثم يصرف السيارة ويأخذ طريقه إلى بيته الواقع فى مستعمرة بنتها الأوقاف من قديم بين مجموعة من الحدائق ، ولا يكون له من أرب إلا أن يقطع هذا الشارع الذى لا يعادله فى وحيه الليلى إلا شاطئ البحر فى الإسكندرية وفى شهر من شهور الربيع .

وهو الليلة كعادته سائر يفكر .. ليست الأنوار ساطعة ولا فى السماء قمر ، وعلى الجانب الأيسر وهو متجه إلى الهرم ظلام ممتد ممكن أن يمثل ظلمة البحر ، ونور من مصباح متوحد يومض مستحييا أو ربما خائفا .. ممكن أن يمثل مصباحا فى زورق صيد .. وهذه البيوت فى الظلام هناك كأنها « شباك » فيها أسماك حية وأسماك صيدت بطريقة الموت .

الوقت أواخر شتاء . وفى السماء سحاب أبيض . وغسلت وجه « الأستاذ » نسمة رطبة كأن فى يدها « بخاخة » فاستعذبها .. وهنا وقف مكانه على الرصيف الأيمن بعد أن ألقى نظرة شاعرية « مع بعده عن الشعر » على الكائنات الصامتة حوله .

وجد فيها كائنات كاملة مثل بعض البيوت والفيلات ، ووجد فيها كائنات ناقصة مثل تلك العمارة التى قام منها طابقان وبقيت هيكلا مسقوفا ليس فى أحشائه سوى الفقر والظلام . وكان الدور الثالث لا يزال بلا سقف . واشتد نشاط النسيم وزادت درجة الرطوبة وانخفضت

الحرارة ، شعر بذلك فجأة .. فنظر إلى الدور غير المسقوف وجعل يوازن بينه وبين الأدوار الأخرى ، وفجأة وجد نفسه يهمس : « السقف .. السقف .. آه .. السقف !! » .

« كنا قبل عصر الفضاء نتصور أن السماء سقف على الأرض ولكن ظهر أن الأرض غير مسقوفة » وضحك .. وهو واقف واستطرد : « يا للفجيعة !! هذا البيت الكبير الذى اسمه الأرض يظهر أنه بلا سقف .. آه .. القمر هو الذى خدعنا .. ظننا أنه معلق فى هذا السقف بمشبك إلهى كبير وله زر يشعل به ويطفأ .. فإذا بالأرض لا سقف لها !! » ..

عندئذ رشته « البخاخة » من جديد فشهق ، ولم يسترد الشهقة ، فقد تذكر سقف بيته .. وضحك فى نفسك « إنه ظل لى ويدوسه الآخرون .. فأنا أعلق فيه النجف وأنظر إليه عندما أفكر بل وعندما أدعو الله .. هذا فى الوقت الذى يدوس عليه بالأحذية من هم فوقى » ..

ولم يسترد « الأستاذ » شهقته لأن شيئا ليس فى حسبانه قد وقع .. حقيقة أن هناك سيارات تتلكأ وتلتقط ناسا أو تروى بناس أو تنزوى بهم لكنه لم ير فى هذه الليلة أيا من هذا ، لم ير إلا الدور الذى لا سقف له .

وعندما شهق كانت أمامه أمراة .. وقفت فجأة ، لابد أنها خرجت من الظل .. ظل كشك الكهربة هذا الواقف فى الظلام على مقربة منه كجسد مستطيل .

من الطبيعى أنه لم يصدق عينيه لكنه لم يكذب أنفه .. فهو ذو حساسية شديدة فى التقاط الروائح . فهنا رائحة عطر تفوح مزجتها

الحقول القريبة برائحة النبات . والليل مزج في الرائحتين رائحته هو .. تلك التي يشمها كل البشر .. بل ويشمها الحيوان نفسه .. ومع رائحة الليل ندى وغموض وخيال لمسته شرارة .

****

مر زمن لا يمكن قياسه .. لا يقال عنه طويل ولا عريض بل ممكن أن يقال عنه « عميق » . فالأستاذ زاهر ليس محروما ولا مكبوتا ولا فاقدا رشده . لكنه فوجىء .. « والمفاجأة » توضع في الحياة تجاه « المصادفة » تماما ، فإذا سلمنا بأن المصادفة تفعل ما لا يخطر على بال وجب أن نسلم أن المفاجأة تفعل ما لا يخطر على بال ..

وتسلل صوتها هامسا واثقا مستحيا .

ـ مساء الخير !؟

وتحشرج صوت ملهوف مضطرب :

ـ مساء . الـ .. يا أفندم ..

واستطردت تحكى كأنها في بيتها :

ـ انظر .. ليس معى حقيبة ، خطفها شاب ودخل في هذا الشارع يجرى .. ظلام .. وجريت وراءه فانكسر كعب الحذاء . انظر .. ها هو ذا ..

ووضعت كفا على كف فوق بطنها .. وظل الليل يبعث بالرائحة الممزوجة .. بالعطر والنبات والندى والغموض ..

ولم يرد هو .. ولم تسر هى .. وأرسل كشاف سيارة ـ كأنه عن عمد ـ نورا على وجهها فأسبلت عينيها .. وفي ذلك النور تكشف سر

شبحها .. كانت نحيفة قصيرة متوسطة العمر . لها رجل أقصر من رجل وذلك من الحذاء المكسور الكعب .. وفكر هو «أليس من الممكن أن تأخذ سيارة أجرة إلى بيتها .. في بيتها ينحل كل شيء ؟! ممكن » .

لكنه لم يقل لها هذا لأنها هي شخصيا تعرف هذا .. وتحسس جيوبه وتساءل ماذا يفعل ؟ ولأول مرة يشم رائحة الخمر وكأنها فاحت منه .. ونظر إلى الدور الذي ينقصه السقف المبنى الجديد . وساد الشارع ظلام لم يبدده مرور سيارة .. وفي لمحة مثل خطفة البرق أحس كأن يدأ تنتزعه فتركها وسار وخيل إليه أن وراءه وقع خطوات عرجاء من امرأة إحدى فردتي حذائها مكسور الكعب . وبدأ الليل يسترد رائحته .

لكنه عندما ابتعد كثيرا نظر فإذا بها تلوذ بظلال كشك النور أو تتوارى في ظلامه ..

وأخذ طريقه إلى بيته .. وعندما تاه في ظلام حدائق مستعمرة الأوقاف كانت جميع النوافذ في المساكن موصدة ومعظمها مطفأ النور ...

ولما أوى إلى فراشه ظل ينظر في السقف .. رآه بديعا . كان فيه زخارف لأنه من أسقف وزارة الأوقاف . وكان في الحجرة نور خافت حوّل بعض الزخارف في عينيه إلى صور غريبة .. فظهرت الزهرية المصبوبة بالمصيص في أحد أركان السقف .. ظهرت صورتها وكأنها امرأة تلبس حذاء مكسور الكعب نحيفة خفيفة كالريشة متقدمة في العمر وهذا هو الذي آلمه .. وعاد فسأل نفسه : لكن لماذا لم يفعل شيئا ؟!

وتنهد ونظر إلى سقف حجرته وتذكر الطابق الذي رآه بلا سقف والمرأة التي رآها بين الحقول على طريق عام وكأن أمواج البحر تسعى إليها لتجرها إلى الأعماق .

ثم عاد فسأل : لماذا لم يفعل شيئا؟؟ وأجاب بحماسة من يدافع عن نفسه : « ما قيمة عمل يؤخر التعاسة ليلة واحدة « أو يعطى ليلة واحدة للتعيس وكأنها إجازة لتستأنف التعاسة بعدها عملها السرمدى ! » .

وحملق فى السقف فرأى البرواز الذى رسم على هيئة زهرية هو كما هو على هيئة زهرية ، واختفت تماما صورة المرأة وسمع وقع أقدام ثقيلة على السقف فوقه فتذكر أن سقفه أرض يدوسها ناس .

لماذا يشعر الآن بألم فى المفاصل .. والعينان ثقيلتان ؟! إنه نوم المخمورين !!

وفى الليالى التالية لم يتكرر المشهد . ولكنه كلما مر على كشك النور والعمارة التى ينقص السقف بعض طوابقها وقف وتأمل وهو يقول فى نفسه : « فى هذه المدينة أسماك كبيرة .. وأخرى صغيرة .. وطعم .. وزوارق صيد .. وناس فى الطرابق العليا يحلمون وناس فى البدرومات لا يجدون حلما .. لكن .. آه » .

وضحك بعد التنهد وسأل نفسه : « ما هذا ؟! هل سأقول شعرا ؟! لا قدر الله » .

القبَسُ الخـالدْ

(جوليت فوق سطح القمر)

فى الشارع الملتوى القليل النور المبنى على سفح الجبل ، والقمر يغالب السحاب والمصابيح تغالب الظلمة ــ كان سائرا يغالب هوى نفسه نحو البيت الذى يقصده . كل بيت فى موقع أعلى من البيت الذى قبله ، ورائحة البحر تملأ الأنوف وأشجار الحور مستسلمة للنسيم . ينقل خطاه ويتلفت .. إنه يعرف البيت بالوصف فى هذه المدينة الغريبة .. بيروت .. وهذا الحى المتبرج .. أنواره تلمع من وراء الشيش .. فى قلبه فضول وحزن وتمرد صامت ، وأمام عينه الباحثة عن الباب خيال لشيئين لا يدرى علة وجودهما .. حصان حرون .. وثوب من القطيفة أرجوانى أو أسود لا يتبينه فى الليل .

وانتهى صف الأشجار على يمينه وبدا الشارع فى الارتفاع . يحس وهو صاعد فيه بضيق أنفاسه . أين القاهرة ذات الشوارع المستوية ؟ وأدرك فى وهلة أنه أمام البيت المقصود كما وصفته له عندما لقيته فى الصباح فى أحد المقاهى على البحر وتجاذبا أطراف الحديث .

بابه كأنه عين لقنطرة ماء فى استطالته وضيقه وإطاره المتماسك. والسلم يشغل المدخل كله يكاد الطويل يلمس برأسه السقف .

وقبل أن يلتوى نحو اليمين ونحو باب الشقة هناك مصباح متواضع يبدد الظلام . ورأى تشابها غير مقصود بين روح السلم ووعورة الجبل .

ومن نافذة إلى اليسار بدت رقعة من الأرض زرعت حديقة فيها أشجار تفاح ونباتات متسلقة أزهارها عند النافذة كنجوم فى الظلام .

واستمر يصعد السلم وفى قرارة نفسه خوف . فهو لا يعرف حقيقة ما وراء هذا الباب .

وصل فى هذه اللحظة إلى حيث يقع الجرس . فتحسس الحائط وعيناه تجوسان حوله فرأى امتداد السلم وهو يتلاشى واستشعر الخوف مرة أخرى . ثم تذكر المفكرة الصغيرة التى تركها فى الفندق على منضدة قريبة من الفرا ش . لترشد إلى مكانه عند احتمال الخطر . سمع رنين الجرس كأن يدا غير يده دقته اتصل به وقع حذاء عال يقطع الصالة وحركة مزلاج . وانتشر عطر وترحيب ولمعان ابتسامة فى النور الضئيل والمكان المحدود .

ـ أهلا وسهلا .

جو الشقة يوحى بالوحدة وربما الملل والرخاء والمعقول فى اسلوب المعيشة .. فتجاه الكرسى الذى جلس عليه تمتد الصالة . فيها مكتبة وعدة كراسى ومنضدة عليها مجلات .

ووقعت عينه على الحديقة الخلفية عندما فرغت من فتح الشباك وهى ترحب بتلك اللهجة اللينة الكسول لهجة هذه البلاد وتنسحب عائدة إلى مكانها فى ثوب مسائى لا يخلو من الأناقة .

ومن خلال كلمات الترحيب عادت تقول :

ـ كنت مصممة على أن أتعرف عليك . كان ضروريا أن يقع هذا . فأنت تعرف أن الكلمة الأخيرة لنا ، للمرأة .

وتضاحكا .

وألقت برأسها إلى الوراء أثناء ضحكتها فى حركة أبدت ما تحت جلد العنق قبل أن تعود غدائر الشعر الأسود المصبوغ فتحجب المنظر . غير أن الابتسامة كانت لا تزال باقية على زاويتى الفم ـ وشعر وكأنه لم يلاحظ ذلك من قبل ـ وكأنها امرأة غير التى رآها فى الصباح . لشد ما يغيرهن الليل !! وربما أفكارهن كذلك !! فكأنها الآن أخت لها أكبر سنا وتجربة . تسلحت بمعارف وخبرات أضافت إلى عمرها عمرا ، رأسها المفرطح وشعرها المفروق من وسطه يذكر بجناحى الطائر . إذا صمتت ثم بدأت تتكلم ند منها أنين لين كأنها تتخلص من شىء ثقيل . أنين يوحى بالحنان . لها صورة زيتية معلقة وقد أمسكت بشمعة منطفئة !! علقت بها نظرات الشاب ثم استردها ليلقيها عليها .. ولم تكن هذه أول حادثة فقد لفتت الصورة نظر ناس قبله .. فهمت أنه يلوك سؤالا . وكانت الصورة فوقها تماما فأسندت رأسها إلى الحائط كمن يتطلع إلى السماء لكى تتمكن من النظر إلى الصورة . وهلة بدا فيها طول عنقها وبرز صدرها إلى الأمام وسألت وهى تمضغ كلماتها :

ـ أعرف ما يلفت النظر فيها . أعرف ما يلفت النظر فيها .. (وتحول صوتها إلى همس) الشمعة نعم الشمعة !!.

واستعادت وضعها لتنظر إليه .. فأخذ الجناحان الأسودان ينسدلان حول العنق . وند أنينها اللين كالعادة . ثم استأذنت ونهضت لتعود بصينية عليها قدحان من شراب الفراولة وضعتها على المنضدة القريبة .. وسألته فى اللحظة التى مالت فيها لتضع الأقداح ونظراتها غير متجهة إليه :

ـ هل تعرف معنى الشمعة ؟

فنقل بصره منها إلى صوتها وعاد يقول كأنه اكتشف جديدا :

- أنها منطفئة ..

فعادت تضحك .. بنفس قصير كطفلة تدغدغ تحت أبطيها في اللحظة التي كانت فيها حيث كانت من قبل :

- نعم نعم .. ألم تلاحظ ذلك ؟! لكنني أسألك عن معنى ذلك !! ..

كان قدح الشراب في طريقه إلى فمها وهي جالسة تحت الصورة كأصل غير مطابق .. ونسيت ابتسامتها الطفلية كأنما تلبستها روح جديدة .. ولعلها لم تشأ أن تعطيه مهلة للجواب فقالت بنفس اللهجة :

- أنها ترمز للعمر .. للعمر !!

- آه !! فهمت !!.

- لعل ذلك يبدو غير واضح أحيانا .. لكن الفنان قصد هذا . انظر !! .

وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تتكلم .. واسترسلت كأنها نسيت ضيفها . كأنها تلقي درسا على أحد يجلس في شرفة أو يطل من نافذة في نفس الجدار .

- رسمني وأنا ماشية .. خطواتي غير متمكنة على الطريق .. وكأنني .. أتحسس الطريق بقدمي .. لاحظ ... والقدمان حافيتان .. والنظرات إلى الأمام .. وتعبير الوجه .. نصف مأخوذ !! وفي الخلفية !! ألا ترى ؟!

وهج النار .. على نهاية الطريق .. رمز للروح الخالدة .. كما أن الشمعة المنطفئة رمز للعمر الذي لابد أن ينتهي .. هل عرفت

الآن ؟.. نمشى ونحن نحمل أعمارنا المنتهية نحو القبس الخالد فى نهاية الطريق !!

أحس طعم الفراولة على شفته حين لعقها بلسانه عقب انتهائها من كلامها واستعادتها لوضعها . ورن جرس التليفون فطارت إليه حتى كادت تصطدم بقطع الأثاث وهى تجتاز العقد المفتوح على هيئة قوس والمغطى بستارة مخملية لتفصل حجرة الضيوف عن الحجرة المجاورة التى يسودها الظلام . وأخذت ترد بلهفة قلقة كأنها كانت بانتظار قادم .. وكلمات متناثرة تصل إلى سمع الضيف بلهجتها الإقليمية .. تتكلم .. تنفذ كلماتها من خلال الستار المخملى الذى لا يزال يهتز فتصل الكلمات إلى أذنيه وعينه على اللوحة . « كنت بانتظارك » .. «حتى يوم الثلاثاء ؟! اثنتان وسبعون ساعة ؟! » .. «لا أحد عندى» .. « زجاجة دواء الأعصاب من لندن » ... « على شوق » . وسمع الرنة الأخيرة التى تؤذن بانقطاع الحديث . واستقر الستار المخملى كحائط متكسر يغطيه صمت .. ولم تعد السيدة شاسن إلى الحجرة عند انتهاء الحديث .

ألقى نظرة على الحديقة من خلال الزجاج فرأى الأشجار سوداء فى حضن الليل وعلى البعد لمعت نوافذ واستنارت السماء بالإعلانات الملونة .. وعاد ينظر إلى الصورة .. وخمن من يكون الفنان ؟.. عليها إمضاء لرجل مجهول .. على الصورة والأصل !! وخيل إليه أنها واقفة خلف الستارة تتأمله من فرجتها بحيث ترى ولا ترى كما كان يتأمل الضيوف فى مكتب أبيه أو فى الصالون مع أمه .. وكان يحس لذلك

لذة فريدة .. خصوصا إذا كان الضيف وحيدا وبانتظار قادم والنفس على السجية حتى تبدو تعابير الوجه غير المراقب متصلة بقرارة النفس .

وقبل أن يتفاقم شعوره بالقلق .. انفرجت الستارة عن قامتها ودخلت تعتذر ..، وضحكت إذ لاحظ أنها فى ثوب غير الذى كانت ترتديه .. ولم تلبث أن ردت على السؤال الذى بدا فى عينيه .

ـ كان لابد من فترة لتغيير ثوبى فقد سقطت خطأ زجاجة العصير فلوثته .. لا تقلق فنحن لم نتحدث بعد .. غير أنى فقط كنت منتظرة عودة أختى .. فتخلفت ..

ـ تقيم معك ؟!

ـ نعم .. إنها تعمل مضيفة فى شركة الطيران وقد وصلت إلى المطار فوجدت عملا بانتظارها .. ستطير إلى لندن بسبب مرض بعض مضيفات وزواج بعض مضيفات .. آه .. ماذا كنا نقول ؟ كفانا حديثا عن الصور .. فلنتحدث عنك . هل تقيم عندنا طويلا ؟!.

ـ ربما يوما أو يومين .

ـ خسارة .. آه .. قلت لى فى الصباح إنك تكره مهنتك فلماذا اخترتها إذن ؟!

ـ إننا أحيانا نجبر على أن نختار بين مكروه ومكروه وهذا هو ما يحدث فى الزواج والمهن !!.

وضحك وعضت شفتها ومزمزت ثم بدا عليها التفكير :

ـ هذا صحيح .. صحيح جدا .. فأنا لم يعجبنى الزواج وانت لم تعجبك الصحافة .. ربما لأن الصحافة تتطلب نفاقا وربما لأن الزواج يتطلب إخلاصا .

فسأل حائرا :

ـ ماذا أفهم ؟

ـ إن الاستقامة تبدو عليك .. لكن .. أليس معنى قبولك الدعوة بعد لقاتنا العابر يعنى الميل فيكم إلى المغامرة كرجال أو كصحفيين ؟! ألا ترى ذلك حقا ؟.

فاحتضن ركبته بين يديه .. وأحس أنه في حاجة إلى أن يتكلم .. إلى أن يترك كل تحفظه أمام هذه المرأة التى ربما كان غير مقدر أن يراها مرة أخرى .. لماذا يخاف ؟.

إن أفدح ما يثقل قلوبنا ـ ولو كان اعترافا ـ نلقى به إلى ناس نعرفهم ، ربما فى مقصورة قطار أو تحت صداقة فى عمق الامتزاج بين اثنين خلفتهما كأس من الخمر بين رجل ورجل أو رجل وامرأة .

وعاودته كلمات عمه « راغب » الذى طالما سمعها منه إذ يكون هو فى الريف أو يأتى عمه إلى القاهرة . فقد كان يقول باحتجاج ساخر كأنما يريد أن يخلص الابن من أخطاء أبيه :

ـ إنك تعيش فى جو معتم . جو يخنق من يريد الحياة ..عالمكم الخالى من الميكروبات فيه طهر يدعو إلى المرض .. وربما الجنون .

وهز رأسه وتنهد ونظر إليها من بين أهدابه يستشف ما بداخلها .. وكانت هى ناظرة إليه .. فى عينيها حديث يريد أن يتدفق .. فيه جديد عما تكلموا فيه وقت الصباح .. بعيد عن السياسة والجو وصيف بيروت والإسكندرية واللهو فى جزر البحر الأبيض وعن

مركز أبيه كرجل من رجـال الفكـر يعرفـة خاصـة النـاس .. كـل ذلـك خاضوا فيه وقت الصباح وهما فى المقهى على البحر خلف الزجاج المقفل فى وجه النسيم الأرعن .

أما الآن فكأنه يرى غيرها . خيل إليه وهو فى بيتها أنها تنتظر منه أن يدعوها لأى شيء . أن يطلب إليها أن تصنع فنجالا من الشاى أو أن تأخذ منه أو تناوله . تلك الحالة ذات الحساسية المشهورة والشفافية والخوف . التى يقف فيها الرجل والمرأة عند « ساعة الصفر » فلا تستطيع المرأة مهما أوتيت من قوة أن تتقدم بعد ذلك قيد أنملة إلا إذا فعل الرجل .

وأخذ منظرها الشجاع يتضاءل ويغيب . ليحل محله تراخى الأنوثة . ربما المهمومة أو المغلوبة أو المتهالكة للغاية .

ـ هل من الممكن أن نتعشى فى أحد مطاعم بيروت ؟!

وسألته بصوت خافت بعد أن زايلها أثر المفاجأة :

ـ متى ؟!

فتلعثم حتى قال :

ـ الليلة !! .. فربما أسافر دون أن أتمكن من لقائك .

ـ كان من الأفضل أن توجه إلى الدعوة ـ ما دامت الليلة ـ وأنا فى غير بيتى . لكن .. من أجل بساطة مسلكك .. أقبل الدعوة .

وشعر بخجل وخوف وفرح . وربما بفيض من القوة أحس أنه اختار وملك فرصة المبادءة . أما قبل هذه الدعوة فهو إما ضعيف وإما أسير . وأخذ مرة أخرى يتأمل الصورة وحده . وهو واقف ويداه معقودتان على صدره .. وكانت هى فى الداخل لترتدى ملابس الخروج .

وفاح عطرها فى الحجرة فى اللحظة التى يتأمل فيها الخدين البارزين فانتقل بصره من الصورة إلى الأصل فرآها فى « تيور » أسود من الصوف وفى يديها قفاز أبيض بدت أصابعها فيه ذات رشاقة لم تكن لها وقت العرى . وانتبه تماما وقت الخروج فلم يسمعها تكلم أحدا ولا تستأذن من أحد . وعندما وصلا إلى باب الشقة أدارت مفتاحا وأغلقته . وسبقها ليقف عند النافذة المطلة على الحديقه . وكانت رائحة الأرض والتفاح تملأ أنفه وبهجة الليل تملأ العينين . وهبطت عدة درجات حتى وصلت إليه فتطفل عطرها على الرائحة السائدة وتكون مزيج من الروائح فيه الندى والخضرة والتفاح والعطر والمرأة فأحس للمدينة برائحة شخصية كرائحة جسم معين أو نفس إنسان .

وعندما وصلت إليه تحسست ظهره بكفها حتى وضعتها على كتفه ومالت عليه تهمس :

- هل يعجبك المنظر ؟!

- ساحر !!

- هل يصلح طعاما للعشاء ؟ بنا !!

وقادته على السلم ودقات حذائها على الحجر ذات وقع باد فى سكون البيت . وكان يسمع أنفاسه . وهو ممسك بكفها الأخرى العارية من القفاز . وتلوى بهما الشارع وهمست لهما أشجار الحور وكان ركام من السحاب يزحف من ناحية البحر . بعضه جهم وبعضه شفاف . ولم يكن فى الطريق سابلة ، كانت الساعة تدنو من العاشرة وأكثر المتاجر فى الشارع الرئيسى قد أقفلت أبوابها .

***

واختارت المطعم والمكان والمائدة كامرأة تعيش فى وطنها وحياها النادل بابتسامة ألفة بدا فيها أنه يعرفها وأنها تتردد على هذا المكان . ثم بنظرة جانبية فحص بها الشاب . وبينما هما منهمكان فى قراءة قائمة الطعام عاد النادل ووضع أمامهما المشهيات وكئوسا وخمرا ثم رجع بعد قليل بإحدى المجلات وصحف اليوم ووضعها إلى كرسى قريب منها فى احترام وعدم تكلف يدل على «التعود ».

و لم يستطع الشاب أن يفصح عن شيء من عاداته فقد كان لا يشرب إلا نادرا وبكميات ضئيلة . كان عليه أن يمهد السبيل لكل رغبة لها مهما خالفت رغباته . وقام بمهمة المضيف على أحسن وجه . وبدت هى أكثر تألقا وحركة فى بساطة شابة ناضجة ولو أنها تخطو إلى الأربعين . فلم تكن مبالية أن تهمس بمقطع من أغنية على مقربة من أذنه بعد أن تفرغ من رشف جرعة وتمتزج أنفاسها بأنفاس الكحول .

تتكلم بصوت خفيض جدا وكلما تقدم بها السهر طفت الهموم على وجهها حتى تبدو وكأنها على وشك أن تشكو أو أن تتوسد ذراعيها على المائدة لتنام فقد كان وجهها من تلك الوجوه التى يخلع عليها الشراب قناعا ذليلا .

ـ عندما تشربين تبدو عليك الطيبة . فى الصباح على المقهى رأيت فيك امرأة تصلح لأن تكون مديرة دعاية لإحدى شركات السياحة أو التأمين ، فيك حذلقة وتكلف ، وفى البيت رأيت فيك امرأة ذات تجارب وخبرات .. أما الآن . فأنت مثل غريقة تستنجد فى صمت !!

وأخذ يدق حرف طبقها بطرف سكينه أما هى فقد كانت مستندة بكوعها على المائدة تفرك كفيها على مقربة من فمها فى حفنتها وتنظر إليه بعينين متعبتين . ثم قالت :

ـ عليك أن توصلنى إلى البيت .

و لم تفتر عن الكلام طوال الطريق . وهى متأبطة ذراعه تلقى بثقلها كله عليه . و لم توافق على أن تركب سيارة :

ـ كم يلذ لى أن أتوه فى الليل . تعال نمشى .

و لم تكن فى واقع الأمر سائرة بالمعنى المضبوط فكانت تستوقفه عند بعض المنعطفات أو حيث تكون الظلمة أشد كثافة فى شارع ضيق لتنهى ما كانت تقول . فلو رآهما أحد من الناس لظن أنهما سينهيان حديثا أو يضربان موعدا .

ـ لم تكن فى الصباح هكذا . كان لك وجه صارم . لكن . ابتسامة المرأة تذيب كل صلابة وتصنع من الصخر أجمل تمثال .

كان يتابع كلامها باهتمام وحذر ويضغط على ذراعيها أحيانا فتتأوه . ويذكر عمه الذى يتحدث عن النساء دائما ـ كما يتحدث عن تاريخ ممتلكات أو مفاخر . وكأنما سرت إليه فى هذه اللحظة روح منه فهو الذى دفعه إلى التجربة الأولى عندما زارهم فى القاهرة واختلى به فى حجرته وجعل يتحدث إليه بطريقته الخالية من التحفظ : « إذا اردت أن تكتشف كنوز شبابك فاعشق أرملة تكبرك فى العمر بكثير . لا تحرق نفسك بالخيال المزور فى حب بنات المدارس يا ولد .. هل فهمتم يا شبان آخر الزمان !

ومن خلال تلك الأفكار وثبت إحدى ضحكاتها القصيرة كسهم مضيء ومض في الظلام . وتلوت وتأودت وهي تتأوه ونظرت في السماء .

ـ هل تستطيع أن تقول لى كم عمرك بدون تزوير ؟

فقال صادقا :

ـ ثلاثون عاما .

فأخذت هي تردد الكلمتين كأنه تريد أن تحفظهما . أو أن تكشف فيهما عن سر . ثم قالت بلهجة ملأها الجد وأسى الذكرى:

ـ في سن الثلاثين كنت أسعد امرأة . وقعت فجأة في الحادث الجميل المخيف الذى تحسب حسابه كل أنثى .

هما في هذه اللحظة عند مدخل الشارع المبنى على سفح الجبل حيث بدأ هو منذ أول الليل عن الحديث ريثما يدخلان البيت . وخلصت ذراعها من ذراعه وأخذا يصعدان الشارع . كانت أشجار الحور لا تزال تهمس والقمر لا وجود له ونوافذ البيوت مغلقة كأن سكانها أضناهم المجهود . وبدا لهما ذلك الباب الذى يشبه عيون القناطر فدخلا ووقفا عند أولى درجات السلم . ظنت أنه سيودعها ويعود . فوضعت كفيها كل كف على كتف ورفعت وجهها إليها . لم يكن أمام الباب مصباح فلم يكن هناك إلا النور الساقط من أعلى حيث يتبدد قبل أن يصل إلى المدخل .. لكن ملامح الوجه كانت ظاهرة بشكل ما . وبينما كانت تلوك كلماتها لتنطق طوق خصرها وجذبها إليه فأحس به ينجذب في لين . وبطراوة خالية من المقاومة كمن أضناه مجهود . وفي هذه اللحظة سقط رأسها على صدره واندفن فيه كما يفعل الرضيع .

فلم تسقط قبلته إلا على جيدها من الناحيـة اليمنـى . ولم ترفع وجهها إليه بل أنت وهى كما هى :

ـ إن وجهك خداع .

ولم يشم فى كلماتها رائحة احتجـاج حقيقـى . ولم يشأ أن يطول الموقف فأسندها وتحركا . وقفت تفتش عن المفتاح وقلبه يدق . وعندما دخلا انفجرت فى الصالة بضحكة محبوسة توحى بالظفر والخسـارة فـى وقت واحـد مهزوزة مخمورة كـالتى لم يبق لها مـا تخاف عليه . ثم أمسـكته مـن أطـراف أصابعـه وسـحبته وسـارت أمامه . عبرا العقد المألوف الـذى أسدلت عليه الستارة ولمح الصورة بجانب عينه اليسرى وهو فى الطريق فخيل إليه أنه هو الشمعة . وكانت تقول وهى تمشى :

ــ ليس عندى أحد . أنت ترى .. ليس فى المسكن سوانا !!

***

وعندما استطاع أن يدرك محتويات حجرة النوم بعد مـدة مـن الزمـن رآها ذات طراز غربى يرجع إلى أوائل القرن العشرين وكان على مقربـة من مرآة الزينة تحف صغيرة . وعربة لطفل ! غريبة فى المكان كأنها فـى ملجأ عجائز !!

وأخذ الضباب ينقشع عن المكان والزمان والروح . كانت فى قميص يضرب إلى السواد كجنية وهى جالسـة تمشط شعرها السلس الأسود المصبوغ تسأل فى ابتسامة خائفة عمـا إذا كـان سيحمل لها ذكريـات باقية ؟!

كـانت الجدية بادية فـى سؤالها فسره أن تنطبع آثاره على هـذه الصفحة المهتزة . وأجابها وعيناه عالقتان بعربة الطفل :

- المسألة مسألة قدرة . فإذا كان ما حدث بيننا الليلة قادرا على البقاء فليس هناك ما يدعو للسؤال . سيلتمس كـل منـا الطريق نحو صاحبه ناسيا كل مشقة .

وصمت ثم قال :

- هل لهذه العربة ذكريات معينة ؟!

فأجابت وقد رفعت وجهها نحو السقف :

- كل ما نحتفظ به فى حياتنا وظيفة .. ضرورى .. عربة لطفل أصبح رجلا . إنه ابنى . . إنه فى القاهرة يشغل وظيفة ربما حدثتك عنها . لكن ليس هذا هو المهم . المهم هو اللحظة التى تقابلنا فيها ساعة رأيتنى على المقهى . هل عندك فكرة عن الثمرة التى تسقط توا على الحشائش لعوامل كثيرة وعن مدى صلاحيتها للأكل ؟ كنت فى الصباح فى مثل هذه الحالة . (وضحكت ثم همست فى حجرها) كنت ساقطة لتوى !!

و لم يتكلم بشىء . كانت أفكاره تتضارب . كيف تدعى أنها لا تزال فى بداية الطريق هذه ؟! .. ذلك محال . ونظر فجأة فى ساعة معصمة ليعرف الوقت بحركة لا تعنى إلا الخروج من الموقف الجامد . فرفعت إليه بصرها . كان فى عينيها بوادر وعلى شفتيها بوادر ضحكة . كأنما انبعث المذنب والمؤدب فى نفسها فى شوط واحد .

- كنت أودعه على الميناء . كان ذلك للمرة الأخيرة . هل تستطيع أن تفهمنى لماذا نتمسك أحيانا بمن يتلف علينا حياتنا ؟

- هل هو هذا الذى رسم لك اللوحة ؟!

قالت بهدوء من يلقى أحد التقارير وقد فتحت عينيها :

ـ إنكم تمتازون بالذكاء يا أهل مصر .

ـ رأيت نياته على اللوحة . ليس على وجهك . فى الصورة روحانية من يبحث عن مقدس .. بل على الوجه مسحة من فراغ المأخوذين كأنك منومة . وعلى كل فهل لى أن أسمع شيئا جديدا ؟ فإنه يجب أن أبيت فى الفندق على كل حال .

ـ ذلك مناسب لى تماما فأنا لا أحب أن تبيت هنا . كما أنى أرجو ألا تكون هذه هى الصورة النهائية لشخصيتى . ثم قل لى : هل من الأفضل أن تسلو المرأة عن حبها بحب جديد أو أن يكون القديم نفسه عذابا وسلوانا .. سما وترياقا ؟! هذا إذا ما سلمنا بأن الحب دخل القلب وانتهى . هذه لمحة من قصته . قصة ذلك الرجل المتوسط العريض الكتفين الذى لوحت الشمس وجهه الفذ . ودعته صباح اليوم للمرة الأخيرة لأنه لن يعود ثانيا إلى هنا . أنه يمت إلى وطنى بصلة النسب ، فأمه إحدى فتيات المهجر وقد تزوجت فى أمريكا ، وأنجبته .. اختلطت فيه الملامح العربية بملامح تلك البلاد لكنه احتفظ بالحرارة الأولى لعرقه الأصلى . كان يباهى بأمه السمراء ولذلك كان يحب الشمس . دعاه زوجى صاحب أحد مكاتب التصدير والاستيراد لكى يتناول عندنا العشاء ولم يشأ أن يصف لى الشخصية قبل أن أراها . لكننى أحسست أنه متحمس لصداقته بطريقة نسبت إليها المبالغة . وحين رأيت قبطان المركب التجارى هذا وهو يدخل عتبة بيتنا هناك ـ أحسست بالحنق على زوجى . نفس الحنق الذى ربما أحسسته لو أنه دعا امرأة أكثر منى جمالا . لا فرق بين رجل متفوق على الزوج وامرأة

متفوقة على الزوجة ،فكلا الاثنين يحمل خطرا واحدا على حياتهما المشتركة .. كشيء طارىء على الميزان الساكن فى تعادل وسيجعله يهتز .

رأيت على أنفه الصغير المقطوط ترفعا أعجبنى . كان شامخا به إلى أعلى كأنما جاءته هذه العادة من نظره إلى السماء بصفته من رجال البحر . ولم أحس بصغر كفي إلا عندما وضعتها فى كفه .. وهل أنت من الذين يشعرون بالغيرة عندما تذكر أمامهم مزايا الغير ؟! .. إن عدم المبالاة التى تبديها لن تنطلى على .. لا تقل هذا . لست (مخللا) فى قصة غرام فلا تجعلنى أقطع حديثى . إنك كما قلت لك بلا خوف ـ وجدت ثمرة سقطت على الحشائش . هكذا كنت عندما عدت من الميناء وودعته . وكان لابد أن أفعل شيئا . فجلست على المقهى أتصفح الوجوه . وحيدة على المنضدة التى طالما تقاسمناها . حتى رأيتك .. إنكم أذكياء يا أهل مصر .. نعم . ومائدة العشاء فى نفس المطعم كما تقول طالما تقاسمناها معا . آسفة . لقد أتلفت عليك نشوة ربما كتب لها عمر أطول من هذا . لكننى .. وأدتها .. نعم وأدتها كما تقول . هذا أحسن تعبير .. آوه .. أف . وهل بعد ما تئد المرأة أعز ذكرياتها يبقى فى قلبها خوف . إن زوجى هو الذى فعل كل هذا . ليس فى صلابة المقاومة ؟! لا . بل لكل معركة ميزانها .. هذا ليس مهما الآن فقد أنهيت القصة . نعم منذ ليلة العشاء الأولى أحسست أن شيئا شدنى إليه .

استعدت أساطير الجنيات التى أحبت البحارة . كنت أجلس على المقهى وأحملق فى الماء بعد سفره وأذكر ضحكاته المتتابعة . يأكل

ويحكى .. ما كنا نشبع أكلا ولا حديثا . لغته وعيناه عربيتان .. يحمل لأمه ذكريات فيها سر غامض جعلتني أحبه أكثر . هو كما تقول . لا أدرى فلو قال لى إنه يحب أباه أكثر من أمه لربما اختلف الأمر .

قمنا برحلة مثيرة ذات يوم فى الليلة الثانية لوصوله إلى بيروت وبحثنا فيها عن الحارة التى سكنتها أمه أيام كانت بنت عشر سنين وقبل أن تهاجر . وأخذنا نتخبط أنا وهو فى أماكن لم أرها من قبل. أحسسنا معا أننا تائهان . ويوم ذلك منحنى ذلك الإحساس شعورا بأننى لست من بيروت . وعندما كان شىء من الخوف يبدو فى عينى كان يضغط على كفى .. فيذهب الخوف !! وكان الحى الذى ولدت فيه أمه قد تغير وأعادت البلدية تخطيط المكان لكننا عثرنا بطريق الصدفة على أحد الآثار القديمة مبنى أشبه بالخان فيه (سبيل) لماء الشرب وقد اندثر وبقيت عليه النقوش . وهلل صديقى كأنما رأى مهد أمه . وعرف الشارع . كان بيتها يطل على هذا المكان بآثاره القديمة . فوقف وعيناه تلمعان ينقل بصره بينى وبين السماء والخان والفضاء كأنه يفتش عن البيت . وبعد عودتنا من هذه الرحلة أحسست أن شيئا ينبض فى داخلى . « جنين إلهى ليس له أب .. شىء من روح اللّه » هذا هو ما قاله لى ونحن نقطع آخر خطواتنا إلى مكتب زوجى .. ودخلنا معا . ورأيناه غارقا فى المحادثات والصفقات وحوله السماسرة وبعض المهربين ..

****

وخلال زياراته المتعاقبة لبيروت لم يتعد الأمر بينهما تلك المتعة الروحية المشوبة بالانتظار . وأحيانا يجسدها خيال مشبوب فيه إحساس بأن هناك أشياء من الممكن أن تقع . كانت تحس طعمها وهى فى نافذة حجرتها حين يحمل إليها الهواء الصفير المجوف العميق لإحدى البواخر . ويهتز قلبها لذلك الصوت فكأنه موكل بأن يحرس ذكراه .

لم تكن عرفت الحب بمعناه الفائر .. لم تكن طعمت به ولا حصنت منه شأنها شأن الشاب الذى معها الآن فى حجرة نومها فى موقفه من الخمر أما هى فقد شربت لأنها تعودت . وكان زوجها يتلقى الهدايا منها عن طريق المراكب التجارية التى تمر بالميناء . وليس من الضرورى أن يكون فيها هو .. فقد كان له أصدقاء بالطبع .

وذات مساء دخل عليها زوجها وهو واجم .. يحمل نبأ نزول صديقه .. صديقها .. وهو فى حالة إعياء شديد خطر استدعت نقله إلى المستشفى . وطبيعى أن يسافر المركب ليتم رحلته إلى الهند وعند عودته من بيروت سيكون هو قد استرد عافيته .

- ليت هذا لم يحدث . لو أن قصة علاقاتنا خلت من حادثة مرضه لتغير كثير من الفصول .

وسكتت قليلا وكأنما أدركها الأسى لأنها قصتها على أحد . ثم لمعت عيناها . وكأنما سألت وأجابت : وماذا فى هذا ؟! لا شىء مطلقا !!

أعجبها فيها أنه يكتم ألمه . لم يزعجه بتاتا أن الأطباء انزعجوا عليه : « التهاب بريتونى ؟! ذلك لا يخيفنى يا حبيبتى فلا فرق بين أن يهددنا الموت من داخل أجسامنا أو من خارجها .. لا فرق .

وكانت حاله قد تحسنت شيئا ما حين نطق بهذه العبارات . ثم نسي المرض . تفوقت قوة الإرادة ز فأخذ يحكى لها عن مناظر الصراع التى طالما رآها فى الظلام .. فى لجة البحر . قصص الموت التى مرت بها السفينة .. القروش والحيتان . والصراخ الغامض من حناجر غير بشرية ينتمى إلى الألم أو اللذة .. كان يأتى من لجة البحر والليل أخرس . وقصة النوتية الثلاثة الذين كنستهم العاصفة ذات ليلة .

وأشارت إلى قطعة من المحار النادر موضوعه على مقربة من مرآة الزينة كانت ألوان الطيف مسكوبة على حافتها . كتب عليها بقلمه يوم أحضرها لها بيتا لشاعر مهجرى ينضح شطره الأول بالحب وشطره الثانى بالحنين إلى الوطن . قرأته .. حفظته .. ثم قبلته على المحارة حتى تلاشت الحروف وبقيت هى كعنوان يدل على كل ما فات . وعلقت عينا ضيفها بالمحارة . قام إليها وهى تتكلم حتى صار صوتها يأتى من الخلف كأنه منبعث من (جرامفون) .

ووقف هو يتأمل بقية الأشياء أمامه .. أما هى فكانت مستلقية على ظهرها فى تعب مسبلة العينين كأن هذا الشاب مفتاح (مولف) لباب قد ضاع مفتاحه . ومن خلال هذا الباب الذى انفتح دلفت هى إلى عالمها من جديد .

ـ لم أكن أشعر بالخوف وهو يحكى لى هذه الحكايات . شعرت أنه عالم مليء بالسحر والموت فيه قوة لا ترهب . مثل عالم «ديدمونة» الذى رسمه لها « عطيل » . تعال هنا .. أعد المحارة إلى مكانها . وهذه الزهرية الخزفية من بلاد الصين . اشتراها لى ابنى من القاهرة . أوحشتك إلى هذا الحد ؟! آه .. إنها جديرة بكل حب . « قلب لم يخفق من أجلنا » .

دع فضول الصحفيين . فإن ثرثرتي لم تدع لفضولك مكانا . هذا النوع من الخزف يبيعه دكان عندكم في شارع لا أعرف اسمه (وانتفضت) . هل سمعت دقات الساعة ؟!

وعندئذ قال كمن أفاق من حلم :

— يجب أن أعود إلى الفندق . إنها الثانية صباحا . آمل أن أراك غدا .

وانقفل الباب وراءه في صمت بعد أن قبلته عنده قبلة خرساء قبلة طويلة قلقة كأنها تلخيص لما فات . وبدا السلم له في ذلك الوقت كأنه عالم غريب بذكرياته وروائحه وظلمته . والباب .. ينقصه نوع من دخان التبغ ليئول في خياله إلى كهف وسكارى . وألقى على البيت نظرة ثم ولاه ظهره . وبدا الشارع ينحدر به ونسيم آخر الليل وهسهسة الحور ووقع أقدامه . وقمر ضائع وصفير يأتي من الميناء يتردد صداه في الصدر كأنه روح ذلك البحار جاءت مختنقة . تزرع الحب في كل أرض وتسقيه بمهارة لا تخلو من التزييف وتذكر زوجها .. إنه هجرها تماما وهو الذي عرفها به . وابنها يعيش بعيدا عنها ولو أنه يحبها فقد اكتشف بطريقة ما أن أخطاء أمه أخف من خسة أبيه . وأن الأب دبر هذه المكيدة لزوجته لأنه كان يريد أن يتخلص منها لأنها مسيحية ولا طلاق .

ثم . ظل يسأل نفسه هذا السؤال ويردد باحثا عن إجابة وفي ضميره ذلك الشيء « الذي يجعلنا نختار قاضينا » لنصدر الحكم الذي يرضينا فلم يستطع أن يفترض أنه مكانها بالضبط . ولا أن يشعر بأن الحب يولد بين رجل وامرأة عدة مرات . ما دام الإثم والتوبة هما القدمان اللتان تمشي عليهما القصة بينهما . نعم !!

فـراشُ الأوهَـام

بعد عشاء فاخر آخر السهرة .. بات الملك مهموما . نام ملىء المعدة بالطعام .. وقلبه ملىء بالخوف .

وفى حجرة المخدع الواسعة كانت الشموع ساهرة مطرقة اللهب : رءوسها أسنة ملوية : وفى الأركان المظلمة التى عجز النور عن الوصول إليها . كان يرى أشباحا صفراء تتكاثر وتتوالد وتصخب . وتجرى فى غير اتجاه .. أو كل اتجاه .. وأحيانا تقف بغير نظام وترفع رجلا وتضع رجلا على التوالى .. مشية الوقوف أو وقوف المشى « محلك سر » . نهض من فراشه ونقل بيده بعض الشموع إلى أماكن الظلمة . أنه لا يريد أن يرى هذا المنظر قط ، نعم .. يود أن توافيه المنية قبل أن يراه بعين الحقيقة فما هو الآن إلا خيال .. أشباح فى مخدع رجل خائف . لكنه بعد أن تمدد فى سريره ما لبث أن انتقل إلى الركن الذى خفت فيه النور . بل وزاد شىء جديد .. فهناك نساء يلدن وهن سائرات فى الموكب ويحملن المواليد ويلوحن بهم فيصرخون . أفواه بلا أسنان ، وأعين مغمضة ، لكن تعبير المطالب مرسوم على زوايا الأفواه الباكية .

وعاد يسمع أصواتا . كأن امرأة تتقدم الحشود . وترمى طفلها تحت قدميها وتهتف فى الناس : « إلى قصر الملك » !!

ففتح الملك عينيه . أنه لم ينم بعد ووضع يده على جبينه يتحسس الحمى لكنه بخير . ليس به إلا الخيال ، الجموح فاض كما يفيض النهر فيحمل الجثث وجذوع الأشجار ويجرى ..

على كل حال تذكر الآن أنه قضى أيامه الماضية مهموما .. رماه القدر برجل ثقيل الحديث وجهه بجعد كجلد التمساح وعيناه مستديرتان بلا أهداب . فرأى الملك فيهما عينى ثعبان . وكان هناك ساعة حديثة .. شيء يدق على بعد ، صوته مثل صدى الطبل ، ما إن يقترب حتى يبتعد على التوالى .. ورائحة (المعدة) تفوح من أنفاس الرجل كلما تكلم المريض أو الجائع .

ورفع ذراعين طويلتين معروقتين كذراعى أخطبوط وأخذ يشرح كيف أن المياه هبط منسوبها فى الآبار ، وأن السماء لم تمطر ولا تبشر بالمطر . وقبائل الرعاة فى المملكة يرحلون من مكان إلى مكان ويقفون فوق قمم الجبال وينادون السماء ..

ودخل عليهم أحد الخلصاء واقتحم الحديث :

ـ سمعت اليوم حكاية تفوق الأساطير يا مولاى !!

كانت اللهجة غريبة بلغت من الإتقان ورنة التشويق ما جعل الوجوه كلها تستدير إلى المتحدث . ورأى الملك على وجه صفيه علامات يعرفها مثل خلجات « ماسونية » يتدرب عليها مثلهم . وتوقف المتحدث الأول حين رأى الملك يتجه باهتمامه إلى صديقه .

ـ انها حكاية تفوق الأساطير يا مولاى :

« شاب وفتاة من أحد النجوع أحب كل منهما الآخر . والزواج على الحب فى بادية مملكتك لا يزال محالا .. ليس من المحتم طبعا أن الزواج هو الكره فالعكس ليس صحيحا على الدوام . لكنه يجب فى عرف مملكتك ألا يتزوجوا على حب . لكن الحب يقع يا مولاى على الرغم من القلوب . فالقلب فى الحب يوافق ويتعذب . وأخذ والدا

الحبيبين يضيقان عليهما فلم يوفقا فعمدا إلى التعذيب . كل يعذب من يخصه . وعندئذ التقى الحبيبان وقررا قرارا . قالا : ما دام الأمر عذابا فى عذاب فلم لا نتعذب بما نريده نحن ؟! هلم نهرب . وفعلا . لم يكن معهما زاد ولا ماء . وضربا فى البادية كلما عطشا تبادلا القبلات .. كلما جاعا تبادلا الأحضان . واستمرا فى السير حتى انقضى اليوم ، وتعبا ، وأدركهما الليل ، وكان عليهما أن يناما فى مكان مأمون ، لا يصل إليه وحش ولا مطارد .

وعلى بقية من نور الشفق وجدا بئر جافة ، فقررا أن يناما فى قاعها . وكان كل منهما خائفا يكتم الخوف عن نفسه . وعن حبيبه بالطبع ، وكانا يعلمان أن الموت المؤكد هو آخر الرحلة ، لكنهما .. ظل كل منهما يقبل من جسم الآخر ، مواضع الجروح التى تركها التعذيب ، حتى تقدمت خطا الليل . ولفهما نوم ثقيل . الأيام قد مضت والحبيبان لا يشعران بوجودهما. وهما حتى الآن فى نفس هذه الحالة . فمجرد ما اضطجع الحب فى قاع البئر الجافة نزت بالماء ، وأخذ منسوبه يرتفع بسرعة قطعت عليهما سبيل النجاة ، ماتا فى القاع وفاض الماء وبدا أهلهم يزرعون النخيل والتين على الحوافى ، فى البقعة السعيدة .. أسمعت يا مولاى ؟! » .

هز الملك رأسه وقال : هذا مؤكد ، هذا ممكن للغاية . هذا معقول جدا . ثم وجه الكلام نحو المتحدث الأول :

ـ لكن .. لماذا إذن تقول : أن المياه قد جفت فى الآبار ؟!

فتحير الرجل ونظر بعينيه المستديرتين إلى أمين الملك فرأى على شفتيه خيال الدهاء . لكنه صمم على أن يستمر فقال للملك :

ـ لقد سمعت هذه الحكاية أنا الآخر ..

ضحك أمين الملك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وعض الملك على نواجذه .وبعد أن ملأ الصمت القاعة من جديد ، واتجهت الأبصار تطلب تفسيرا من الناصح الأول ، قال للملك مكملا حديثه :

ـ هذه الحكاية ملك كل العالم . حدثت فى كل مكان و لم تحدث فى أى مكان ، ليس أبطالها من الفيافى المغطاة بالرمال فحسب ، بل من الفيافى التى يغطيها الجليد أو تكسوها الغابات . وفى (الفيافى أيضا) التى تنهض فيها القصور وناطحات السحاب . إن أمينك أيها الملك قال صدقا ، لكن بقعة من الكذب دائما تسقط فى مكان خفى على الصدق الموجه للملوك . وعلى حساب هذه البقعة تكون السعادة .

وسكت وتنحنح وأطرق . سمع خفق قلبه . لكنه أدرك أن التراجع مهين للملك . فأكمل :

ـ الأكاذيب نبيذ جيد . خصوصا إذا ما عتقت فى قبو مظلم . والذى روى هذه الحكاية يا مولاى ، لم يذكر شيئا عن جثتى الحبيبين لأنه يريد عنصرا غير ذلك . ذكر الخضرة والنخل والتين والحياة التى خلقت من (نبتة صغيرة) هى الحب الذى آوى إلى قاع البئر لاجئا من مطاردة البغضاء .

وأخذ الناصح يمسح عرقه . فقال له الملك :

ـ أحسنت .

لكن أمين الملك هز رأسه فى صمت . ونظر إلى الناصح نظرة لا لغة لها ، وبات الملك طوال الليل يحلم بوجهه الكئيب وجلده الأسمر المجعد وعينيه المستديرتين المجردتين من الأهداب .

ولما دخل المساء التالى دخل أمين الملك على الملك مختالا وكان الناصح حاضرا بمجلسه ، ثم نظر إلى الناصح نظرة جديدة لكنها لا لغة لها .. ومال إلى الملك يهمس له . وطال الهمس ، وكلما استطال أشرق وجه الملك بالابتسام والرضا والسكينة . يهز رأسه مؤمنا ممتنا موافقا فى آن واحد .

وأخيرا . قال الأمين بصوت عال نوعا :

- أجل .. أجل .. دعهم يدخلوا .

وتعلقت الأبصار بالباب فدخل عديد من الأعراب فى ثياب بدوية أعمارهم مختلفة . بعضهم يبدو ضاحك العين وبعضهم يبدو ضاحك الفم .

وأمرهم الملك بالتقدم فحيوا بالركوع . ثم اتخذ كل فريق منهم ناحية ، فكان عدد منهم إلى اليمين وعدد منهم إلى الشمال ، وقال الفريق الأول : نحن يا مولاى أهل الفتى . وقال الفريق الثانى : ونحن يا مولاى أهل الفتاة . ثم قال الفريقان فى نفس واحد . ونحن نشهد الله على أن هذه الحادثة قد وقعت وأننا نزرع على فيض كثير من ماء هذه البئر .

فسأل الملك :

- وهل وجدتم الجثتين ؟

قالوا :

- نعم ، ودفناهما تحت أشجار التين .

- فى الأماكن الظليلة يدفن المتحابون وفى هجير الصحراء يثوى المتباغضون ... اليس كذلك يا سادة ؟

أجابوا جميعا :

ـ صدقت يا مولانا !!

لكن الناصح كان يشهق وظل يشهق حتى أخذه الفواق ، لأنه أدرك التناقض بين الوقائع . وألجم فسكت . لكن الملك فاجأ المجموع بضحكة سخرية ، وقال لهم :

ـ إذا كان الحبيبان سببا فى وجود أشجار التين فكيف دفنا فى ظله . أخطأتم فى ترتيب الوقائع .. فقد ماتا فى الهجير وظلل التين المكان بعد موتهما بسنوات .. آه .. أيها الأمين .. الأكاذيب نبيذ جيد حقا .. خصوصا إذا ما عتقت فى قبو مظلم .

وسكت .. وتعلقت الأنفاس وجلا ، لكنه ما لبث أن قال لأصحاب العيون التى تدور فى محاجرها كزئبق :

ـ لكن لا بأس .. ما دمنا محتاجين إلى النبيذ فلابد أن نشرب المغشوش .. ألين فراش ما حشى بأضعف زغب .. وهكذا ننام على الأوهام .

ثم صرخ ..

ـ انصرفوا ..

فلم يبق فى القاعة أحد .

***

.. وبات الملك تلك الليلة المخيفة .. ليلة رأى الجموع ..، ونقل الشموع من مكان إلى مكان .

وكان قد أحصى مقتنياته الشخصية من الأغذية ، واطمأن إلى أن ما عنده منها يكفيه عدة أعوام . وحتى النبيذ عرف عدد زجاجاته . وعمل حساب حراس الأغذية . وأن يكونوا فى شبع ، والإ وحدهم الجوع ضد المخازن ..

غير أن هذه الليلة كانت للملك ، مثل (أستاذ) . علمته وتركته يفكر .. فمنظر المواليد فى أيدى الأمهات وهى يعبرن عن المطالب بالصراخ جعل الملك يصمم على أمر .

ولما تنفس الصبح الصعداء .. واستدعى رجال (العسس) وأمرهم أمرا صريحا قاطعا . قال لهم :

ـ انتم مكلفون بإحضار أصلح رجل أو امرأة فى مملكتى ليستشارا فى امر نقصان الزرع وهلاك الضرع ، وإلا فسترفعون إلى السماء على صلبان من الخشب .

الفهـــرس

صفحة